
عاهدوا
وما بدلوا
ذو القعدة/ ١٤٣١هـ

جيش المجاهدين
الهيئة الشرعية

ذو القعدة/١٤٣١هـ

عاهدوا وما بدلوا

عهود موثقة بالكتاب والسنة
لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها

الجزء الأول

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤ ﴾ (الأحزاب).

المقدمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

منذ أن أنزل الله هذه الآية، وكلُّ واحد من المنتظرين ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾ يحدِّث نفسه بحديثٍ عن مصير نفسه، عينٌ راجية تتطلَّع إلى كواكبَ ممن مضوا وقضوا نحبهم **ولم يبدِّلوا تبديلاً**، وعين تَطَّلِعُ على أكوامٍ تعرفهم ممن نقضوا عهدهم، وقضوا على سوء الختام نحبهم، **بعدما بدَّلوا تبديلاً**.

ويبقى قلب المنتظر مشفقًا على مصير نفسه أن يصيبها تبديلُ **مَنْ بدَّلوا تبديلاً**، ولسان حال الناظر في الآية المنتظر النهاية يقول: يا رب، إذ أقرأتني هذه الآية، وأنا الآن ممن ينتظر، فاجعل وفائي كوفاء سعد بن الربيع وأنس بن النضر وعكرمة وبقية الصحابة ومن تبعهم على هذا الطريق بإحسان ممن قضوا نحبهم **وما بدَّلوا تبديلاً**.

أيها القارئ، أيها المجاهد: إذا عرفت أنَّ معنى العهد عند العرب هو: كل ما عوهد الله عليه، وكل ما كان بين العباد من المواثيق، وأنَّ العهد- كذلك- هو الميثاق بيمين كان أو بغير يمين[(١)]، فاسترجع الآن ما مرَّ بك من عهود عاهدتَ الله عليها في مكان ما، وزمان ما، وستجد أنك عاهدت الله عند الكعبة، أو عاهدته يوم عرفة، أو عاهدته في بيت من بيوته، أو عاهدته في الثلث الأخير من الليل، أو عاهدته وأنت تقرأ كتابه، أو عاهدته يوم مرَّت بك قصصُ عهود مَنْ لم يبدِّلوا تبديلاً، أو عاهدته يوم نُكب الإسلام في مكانٍ ما في هذا الزمان، أو عاهدته لما رأيتَ الصليب يرتفع على أرضك، أو عاهدته حين رأيتَ الأعراض تُهتك، أو عاهدته بعد معصية أو بعد طاعة، أو عاهدته عند جنازة، أو عاهدتَ الله وأنت على جرف القبر، أو عاهدته وأنت في ذروة خشوعك وقربك من ربك.

تذكَّر في لحظتك هذه موقف العهد وعهد الموقف، تذكَّره، فلقد ذَكَّر اللهُ الصحابةَ عهدهم في الحديبية حين بايعوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بيعة الرضوان، وقد كان الموقع تحت الشجرة

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٦/٤٩٤.

تحديدًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح).

تذكَّرْ أين عاهدت الله، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤).

اذكرْ موقع عهدك، وذكِّر به نفسك.

فلقد ذكَّر به رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مَن فرَّ عنه وتركه حين أمر العباسَ أن ينادي: (**أصحاب السمُرة...**)[١].

وهل ينسى واحدٌ من المعاهدين بعدما ذكَّرهم الله بموقع العهد؟!

وهل تنسى النفوس بيعتها التي كان ثمنها بيع نفسها، يقول سلمة بن الأكوع: (بايعنا رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية على الموت)[٢]؟!

أيها المجاهد في العراق وفي بلاد الإسلام: تذكَّر، فلربما كانت صيغة عهدك بلفظ العهد الصريح، أو كانت بمعنى العهد الصحيح، أو كانت بكلمة أو بقصيدة أو كانت ببيعة...

تذكَّر كيف كانت؟ وأين كانت؟ يكفيك أنَّ الله سبحانه قد شهدها.

العهد في الموقف سُنَّة: فلقد عاهد موسى عليه السلام ربَّه فورًا في المكان الذي قَتل فيه الرجلَ، ودون تأخير: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (القصص).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل مَلَك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولمَّا يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتًا لم يرفع سقوفها، ولا آخَرُ اشترى غنمًا أو خلفًا وهو ينتظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا. فحُبست حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت، يعني النار، لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غُلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل. فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك.**

(١) أخرجه مسلم (٤٦٣٥)، والحميدي (٤٥٩)، وأحمد ٢٠٧/١، والنسائي في "الكبرى" (٨٥٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٦٩).

فلزقت يد رجلين أو ثلاث بيده، فقال: فيكم الغلول. فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلَّ الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلَّها لنا)[1].

وعاهد أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحديبية **تحت الشجرة**، وحفظ الله لهم موقع بيعتهم، فقال سبحانه: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾**﴾ (الفتح).

هكذا كان دأبُ أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كلما اقتضى الموقف صبرًا فوق الصبر، وهمة فوق الهمم، ووثبة فوق القمم، وثباتًا لرجلٍ يفوق ثبات أمم كانوا رضي الله عنهم هناك، وكانوا هم المعاهدين الصادقين الأوفياء.

كم كانت كلمات العهد عظيمة قُبيل معركة بدر، حين وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر سماعها في موقفها المحدد، فماذا قالوا؟

ومن قبل بدر عاهدوا، وكان موقع العهد هو العقبة، فالتصق اسم المكان في سجلات التاريخ التصاق البيعة نفسها فيه، فأصبحت تسمى "بيعة العقبة".

وبعد البيعة، كانت ثمة عهود فردية يطلقها الرجل في لحظة معينة، في حالة معينة، في مكان معين... ويبقى الوفاء بذاك العهد شاغله، ليله ونهاره، ينتظر فرصته لينقض انقضاضة الذي لا يقف له شيء في الدنيا، حتى يلقى الله جلَّ وعلا وقد وفَّى بذلك العهد.

عاهد أنس بن النضر رضي الله عنه بعدما فاتته غزوة بدر، فقال كلمات معدودات، تلك هي: **(لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرينَّ اللهُ ما أصنع...)**[2].

عاهد القراءُ ربَّهم حين اجتاحت جيوشُ مسيلمة جيشَ المسلمين، حتى دخل المرتدون خيمةَ القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فحفر القراء لأنفسهم في الأرض إلى الرُّكب، وكان منهم العَجب، فمن ذلك ما جاء في **البداية والنهاية**: (وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم، ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم. وحفر ثابت بن قيس لقدميه في

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، وأحمد ٣١٧/٢ و٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، وأحمد ٢٠١/٣، والترمذي (٣٢٠١)، والنسائي في "الكبرى" (١١٣٣٩) .

الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك. وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذن. وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس، عضُّوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدمًا. وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلِّمه بحجتي. فقتل شهيدًا رضي الله عنه، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال. وحمل فيهم حتى أبعدهم، وأصيب رضي الله عنه، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز...)(١).

ورسالة الحفر إلى الركب تعني الثبات، وتعني حسم وارد التولي عن الزحف من الفكر حسمًا، إنها ممارسةٌ للشهادة، تبعث للجيش كلِّه: إنا قد دفنا بعضنا في الأرض بإرادتنا، فأتموا دفننا؛ لتبقى قبورنا منارات الثبات للأجيال. هي رسالة لإخوانهم المجاهدين: إنَّا لا نريد أن نشارككم في غنيمة، ولا اللحاق بالعدو إن ركبتم ظهره، كفانا جزاءً أنا نردُّ الهجمة عن الإسلام، ولتقطفوا أنتم الثمرة من بعدنا، ولتأخذوا الغنائم والسلب، فعزاؤنا بحفظ ظهر الإسلام.

وعاهد ابن رواحة في مؤتة حين شمَّ في نفسه رائحة التردد، وأقسم عليها لتنزلنَّ، وتدخل فورًا الجنة، فما كان لنفسه إلا أن تتقدَّم وتقتحم وتسقط هناك في مؤتة؛ لتحلق من هناك في أعلى سماوات الجنة في سقف عرش الرحمن.

وكان يقول:

أقسمتُ يا نفس لتنزلنَّه ... لتنزلنَّ أو لتكرهنَّه
إن أجلب الناس وشدُّوا الرنَّة ... مالي أراكِ تكرهين الجنَّة
قد طال ماقد كنت مطمئنَّة ... هل أنتِ إلا نطفة في شِنَّة(٢)

وقال أيضًا:

---

(١) البداية والنهاية ٦/٣٢٤.

(٢) أخرجه البيهقي (١٨٢٥٤)، وأبو نعيم ١/١٢٠، وابن عساكر ٢٨/١٢١. وعزاه الهيثمي في "المجمع" إلى الطبراني، وقال: رجاله ثقات.

يــا نفــس إن لا تقتــلي تمــوتي   هذا حِمام الموت قد صُليت
ومـــا تمنيـــت فقـــد أعطيـــت   إن تفعلـــي فعلهـــا هـــديت[1]

وعاهد عكرمة بن أبي جهل في وقعة اليرموك حين رأى جيوش الروم بحرًا لا يقطعه النظر، فطلب المبايعة لا على الجلد والجدِّ والصبر والثبات فحسب، بل المبايعة على الموت...

وفلسفة هذه البيعة: أننا نحن المبايعين رأس حربة الإسلام اليوم، وقد قطعنا الاستناد على الجيش كله، بل نحن الذين يستند على عملنا الجيش كله، نريد الموت ليحيا الإسلام وتحيوا أنتم.

ولو وجدنا طريقًا لزلزلة حشود الكفر غير هذا الطريق لفعلنا، ولكن لتكن مجرد زلزلة، ولتذهب أرواحنا، وإن لم يكن نصرًا نهائيًا، فلله درُّ أولئك الرجال.

وفار تنور الصليب في العراق، وفارت معه همُمُ المجاهدين، وأطلق الصادقون عهودهم؛ منفردين ومجتمعين، معلنين ومُخْفين... وقد علم كلُّ معاهد أنَّ الله في عليائه قد شهد عهده سبحانه جلَّ في علاه.

ولا تزال أرض العراق تُفرز المعاهدين، من معاهدٍ باع عهده مع الله فخسر الدنيا والآخرة، إن مات على ذلك، قد ذكر الله بيعته وشروته في القرآن: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)** ﴾ (آل عمران). إذ كان الثمن البديل الذي باعوا به عهدَ الله هو الطمع في أمان الأيام، أو لقمة من طعام، أو مصروف أيتام، قال سبحانه: ﴿ **وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)** ﴾ (النحل).

أما المعاهد الأعلى- على أرض العراق- فذاك واحد من اثنين: أما الأول فقد قضى نحبه، وختم بختم الشهادة عهده، ولاقى بالوفاء ربه. وأما الثاني فمشفق على عهده، مشتاق للقاء ربه، منتظر ما

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (حديث ١٩)، والبيهقي ٩/١٥٥.

يبشِّره به رسل الله جلَّ جلاله: ﴿ **مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾** ﴾ (الأحزاب).

فالبشارة تشمل من قضى نحبه، كما تشمل من ينتظر، بشرى من الله ستقع، وما كان لهذه البشارة أن تكون لو خصَّ الله بها من قضى نحبه دون من ينتظر.

لا يحسبن من لم يعاهد الله تعالى صراحة أنه لم يعاهد الله، أو أنه غير ملزم بعهده، أو أنَّ في الأمر سعة، أو أنه في فسحة، يكفي من حسب هذا الحسبان، أنه خارج عن حسبة القرآن: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾ .

فما العهود التفصيلية إلا من ذاك العهد الأول، العهد الأشمل: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾** ﴾ (الأعراف).

ويحفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعهد الأول موقعه فيقول: (**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَانَ– يعني عرفة– فأخرج من صلبه كلَّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذرِّ، ثم كلمهم قِبلاً، قال:** ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾** ﴾(الأعراف)) [1].

يكفي المتخلِّف عن العهد أنَّ الله يشهد عهود أوليائه، ولا يشهده معهم! وما يدريك أنَّ الله حرَمه ذلك المشهد؛ لأنه **كرهه وكره حضوره**، كما قال سبحانه: ﴿ **وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ** ﴾.

يكفيه أنه محروم من كل ما يستحقُّه أهل البيعة وأهل العهد مع الله من معونة الله لهم على الثبات، ونزول السكينة عليهم عند الملمَّات، وتنَزُّل الملائكة عليهم بالبشائر من الله عند الممات...

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧٢/١، والنسائي في "الكبرى" (١١١٩١)، وابن أبي عاصم في "السنة" (٢٠٢)، والطبري في "تفسيره" ١١٠/٩، والحاكم ٥٤٤/٢، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص ٣٢٦-٣٢٧. وصححه الألباني.

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم**)[1].

نحن لم نطلب لقاء العدو كما طلبه بنو إسرائيل: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)**﴾ (البقرة).

ماذا نصنع وقد نزل العدوُّ بديارنا، وهتك الأعراض، وشرَّد، وقتل، وأحرق، وهدم، وضرب، ودمَّر؟!

فهل يسعنا ترك العهد، والمقتضى قد تحقق؟!

ما أحوجنا للعهود في أيام صِفَتها المشتركة هي التقلب والتغير؛ لتكون مُثَبِّتًا للمعاهد كلَّما ضعفت نفسه عن الثبات، وازدادت الضغوط على القعود.

وأما من لم يثبت وهو معاهد فأنى له أن يثبت من غير عهد؟!

فالعهدَ العهدَ حتى قضاء النحب.

﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)**﴾ (الأحزاب).

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٣)، وحسنه الألباني.

الفصل الأول

عاهدوا وبدَّلوا تبديلا!

اقعد فإنما أنت امرأة!

من مواقعنا الجديدة في ميادين الحياة، بعد مواقعنا العتيدة في ميادين الجهاد، بعد قرار التخلُّف والقعود؛ بل بعد الهويّ والهبوط عن ذروة السنام، من على راحلة الإسلام، منشغلين بالتكسب كما يتكسب عامة البشر، متَّبعين أذناب البقر، قد ولَّينا ميدان الجهاد الدُّبُر، متشاغلين عنه بالمال والولد، والحرث والزرع والرعي وطول الأمد!

أرى الآيات التي كانت تمرُّ عليَّ هي الآيات، الأحاديثُ هي الأحاديثُ، العدوُّ هو العدوُّ، الصحبُ هم الصحبُ، فمالي لا أملك الإقدام خطوة، ولا أجد في نفسي رغبة في الجهاد وليس لي عليه قوة؟! فإذا هفت الهمة صُعُدًا إلى العلوّ شعرتُ أنَّ الأرض كلها أصبحت غِلاًّ، فهوت بي نحو الدنوّ، فعادت النفس أسفل مما كانت!

أشعر كما يشعر غيري من الخوالف بأنَّ التغير الذي أصابنا لم يكن مجرد تخلُّف الجسد عن ميدان الجهاد، ولا مفارقة الصحب أو مقارعة الصفق بالأسواق.

لا... إنه نوع آخر في الهبوط، وشعور آخر في الدناءة، وحياة أخرى في النتانة، وإن أُلبسنا عليها أحسن الثياب، ووُسمنا بأحسن الألقاب.

تقول: صِف لي التغير الذي أصابكم؟ أقول: لا أستطيع وصْفه!

تقول: اذكر أبعاد التغير وحدوده؟ أقول: لا حدود له في كياني!

تقول: مثِّله لي، قرِّبه لي؟ أقول: لوكان تغيُّرًا في البدن لمثلته بالشلل، أو أنه المرض الخبيث سرى في العظم وجرى في الدم، أوهو العطب الذي عطَّل كلَّ عضو وعصب!

أجد تغيُّر التخلف عن الجهاد في الهواء، في الماء، في النور، في الظلمة، في الوجوه، ووجوه الوجوه، فكل شيء بعد ذاك الميدان تغيَّر.

إنه العطب الذي دمَّر همتي، وأتلف نيتي، وخرَّب فهمي وذاكرتي.

فإن أردتَ أن أوضِّح لك ذلك، فاستمع لحديث نفسي في لحظة صدقها، وإن كانت كذوبة خصيمة مبينة في حياتها.

استمع لحديث نفسي مع نفسي، استمع لحديث عينيَّ، استمع لحديث أذنيَّ، استمع لحديث الجوارح يومي ذاك، وحديثها يومي هذا!

أين كانت أنوفنا تشمخ، ولمن أصبحت ترضخ؟!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)﴾ (العاديات:١-٤).

قال لي مُبدِّل: لقد صنعتْ فينا هذه الآيات من قبل ما صنعت، بينما لا أجد لصداها في صدري رجع صدًى، وأنا أستمع إليها اليوم!

كم كانت أنوفنا تعظِّم ذاك الغبار؛ **غبار الأرجل** وهي تشتدُّ في سبيل **الجهاد!**

غبار السيارات خلفنا، ونحن نطير بها على بساط الأرض، نبتغي الموت مظانه.

ما أحلى الوجوه المغبرَّة بغبار الجهاد، ينظر بعضها إلى عيون بعض!

ما أطيب الثياب المشبعة بهذا الغبار!

نعم والله، كنا نعدُّه عملاً عظيمًا، كنا نحبه. كان ذاك الغبار أحبَّ إلينا من عطر الجمعة نتطيَّب به لها، وأطيب من طيب الإحرام نتضمَّخ به للإحرام والإحلال، كأنها رياح الجنة هبَّت علينا، فحثت في وجوهنا ذاك الغبار أو كأنه السعوط نستفُّ منه؛ ليحمي اللهُ به أجوافنا من النار.

إيه! كم كان واعظ الجهاد يُهيِّج قلوبنا حين يقول: (**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم**)(١).

كنا نستشعر الغبار واقيًا من جمر جهنم، فنستكثر منه؛ لقول الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم: (**ما اغبَّرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**)(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٥٠٥، والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٨١)، والنسائي (٣١١٠) وصححه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه البخاري (٩٠٧)، وأحمد ٣/٤٧٩، والترمذي (١٦٣٢)، والنسائي ٦/١٤، وابن حبان (٤٦٠٥).

كيف لا نعظّمه، والله يعظّم دوابَّ الجهاد تعظيمًا، فيحلف- جلَّ جلاله- بالعاديات للجهاد، ويذكر ضَبْحها، وقَدْحها، ونَقْع غبارها[1]؟!

أقول لكم: هذا الشعور في داخلي تحوَّل.

لكن لا أدري والله كيف تحوَّل!

الميدانُ هو الميدانُ! الرجالُ هم الرجالُ! الجهادُ هو الجهادُ! العدوُّ هو العدوُّ! الغبارُ هو الغبارُ! لكنَّ الأنوف تغيَّرت، فأصبح غبار الجهاد يزكّمها، وعفيره يؤذيها!

فلقد وَجَدَتْ أنوفُنا دواءَها الجديد في أنواع الطيب النفاذ، تتعطَّر به إلى المضايف والوظائف، يفوح منها عبقُه، ووجدتْ دواءها في طيب الزوجة المثير! وطيب الرجال وأشباه الرجال!

أليس هذا ماضيكِ- يا نفس- وهذا واقعك اليوم؟!

لكن أيثيركِ هذا الكلام نحو العودة إلى الميدان- ميدان الجهاد- حتى وإن كان في العودة احتمالُ حتفِك؟

أقولها بملء الفم لكل قاعد: **اقعد فإنما أنت امرأة!**

قاتل اللهُ عقبةَ بن أبي مُعيط، كيف استطاع أن يُخرج مَن ظنَّ أنه إذا خرج مع الخارجين فهو مقتول؟!

قال ابن إسحاق: (وحدثني ابن أبي نجيح، أنَّ أمية بن خلف كان قد أجمع القعود، وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي استجمر، فإنما أنت من النساء. قال: قبَّحك الله، وقبَّح ما جئت به. قال: ثم تجهَّز، وخرج مع الناس)[2].

---

(١) قال ابن كثير ٤٦٥/٨: يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فَعَدت وضَبَحت، وهو: الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) يعني: اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار. (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير صباحًا ويتسمَّع أذانًا، فإن سمع وإلا أغار. (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول.

(٢) البداية والنهاية ٢٥٨/٣.

اقعد خلف الرجال مع القاعدين والقاعدات، وتعزَّ بكثرتهن من حولك، فالمحصنات الغافلات خير من الرجال الخوالف.

لقد تغيَّر الأنف وتغيَّر، فلقد كنتُ أرى أكبر أنف في الكفر أحقر من روثة يدحرجها الجعلان بأنفه، كما في حديث: (**ليكوننَّ أهون عند الله من عِدَّتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**)[1].

وأصبح اليوم أنفي يبتغي الشموخ بتلك الأنوف الموسومة بالكفر، الشامخة عليَّ وعلى بني قومي!

أصبحت بعد ذاك الشموخ أتشرف بتوسيط الوسطاء لعظيمٍ يَعْرف مَنْ يعرف عظيم قومي الزنديق!

أنا اليوم أكتفي بفتات موائد السرَّاق يلقونها إليَّ من خلف ظهورهم، مستشعرًا العجز عن شكرهم؛ لأنهم قبلوا شفاعتي، أو صدَّقوا شهاداتي، أو استصدروا جواز سفري، أو قبلوا وظيفتي، أو وظيفة من شفعتُ له، أو وقَّعوا عقد صفقة أو وكالة تجارية لي! مبتغيًا تَرْكَهم متابعتي، مظهرًا كلَّ براءة من جهادي ومقاومتي.

إيه: لو كان الصبر على الحرث لكان الأمر أهون، **لكنَّ الأنف رضي بفُساء البقر** حين قبل المسير خلف أذناب البقر، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاًّ لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**)[2].

متى أصبحت الرِّجْل تُشرِّف الرَّجل؟

إنه الجهاد، ويا للجهاد الذي جعل غبار أرجل دواب الجهاد تُشرِّف الرجال عند الله، تشرِّفهم في الدنيا والآخرة!

فإذا أردتَ أن تعرف شرف ذاك الغبار، فانظر لمن يموت ولم يمسه بالشرف ذاك الغبار، وقد كان يقدر على ذلك! بينما تَلطَّخ بغبار العواصف والملاعب والمصانع!

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦١/٢ و٣٦٦، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢/٢ و٨٤، وأبو داود (٣٤٦٢)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والطبراني في "الكبير" (١٣٥٨٣)، والبيهقي في "الشعب" (٤٢٢٤)، وصححه ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام"، وحسَّن شيخ الإسلام ابن تيمية إسنادين من أسانيده في "مجموع الفتاوى" ٤/٦،١٩/٤٤، وحسَّنه ابن القيم في "الجواب الكافي" ص٣٠، والمناوي في "التيسير" ٢٢٥/١، وقال الحافظ في "بلوغ المرام" عن إسناد أبي داود: في إسناده مقال. وقال عن إسناد أحمد: ورجاله ثقات. والحديث صححه الألباني بمجموع طرقه كما في "الصحيحة" ١٥/١.

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا** ﴿٤﴾ ﴾.

فأين كانت أنوفنا تشمخ، ولمن أصبحت ترضخ؟!

أين العيون المشرفة من العين المستشرفة؟!

عن أبي ريحانة رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، فأتينا ذات يوم على شرف فبتنا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيتُ من يحفر في الأرض حفرة يدخل فيها، ويلقي عليه الحجفة- يعني الترس- فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس قال: (**من يحرسنا الليلة وأدعو الله له بدعاء يكون فيه فضل؟**). فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. قال: (**ادنه**). فدنا، فقال: (**من أنت؟**)، فتسمَّى له الأنصاري، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء فأكثر منه. قال أبو ريحانة: فلما سمعتُ ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: أنا رجل آخر. فقال: (**ادنه**). فدنوت فقال: (**من أنت؟**)، فقلت: أبو ريحانة. فدعا لي بدعاء هو دون ما دعا للأنصاري، ثم قال: (**حُرِّمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحُرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله**). **أو قال**: (**حُرِّمت النار على عين**)، أخرى ثالثة، لم يسمعها محمد بن سُمَيْر (أحد الرواة)[1].

كم كنتَ تقلِّب النظر في الظلمات، وتستطيب الكرى في الكربات؛ لأجل أن لا يفوتك التسجيل في صفحة: من حُرِّمت عيونهم على النار؟!

كم كنتَ تقف مترصِّدًا بعينيك صيدًا خلف تجمعات العامَّة أحيانًا، وتسير مع المارين أحيانًا أخرى، تنظر بعينيك هاتين كما ينظرون، وتتلفَّت كما يتلفتون، لكنَّ الله تعالى يعلم أنَّ بصرك- آنذاك- يرقب عدوًا من أعدائه، يتقلب في بلادك مستكبرًا، ولسان حالك يقول: لأتقربن إلى الله بفلق هامته، أو إبلاغ إخواني الكماة عما رأت عيناي من قافلة الصليب المتهاوية في أسواقنا أو شوارعنا؟!

وكم كانت هذه العين حاملة للبشائر بصيدٍ عظيم لإخواني المجاهدين؟!

وكانت هذه العين حارسة لإخواني المرهقين عند نومتهم حتى يستيقظوا، وكنتَ ترى أنَّ الله تعالى يرعاها حتى فيما يريك من رؤى المنام، ألم يقل الله تعالى للأولين: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً**﴾؟! (الانفال:٤٣). فكيف لا يحميها من النار بفضله ورحمته؟!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٥٤٣)، وأحمد ١٣٤/٤، والدارمي (٢٤٠٠)، والنسائي ١٤/٦، وقال الألباني وشعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

إيـه أيتهـا الـنفس: أراكِ- اليوم- تغسلين وميض نور الراجمة، ووميض الزناد، بوميض التلفاز السحري، أوشاشة العجل الفضي، الذي أصبح زادك اليومي، أخبار إثر أخبار، ورياضة وبرامج وانحدار، حتى ألفَتْ عيناكِ التسمُّر أمامه تسمُّر الخشبة بالمسمار، وأُشْرب قلبك حبه حتى لا يكاد يقوى على فراقه، مع يقينكِ أنكِ أصبحتِ تغترفين بمغراف عينيك أكوام الران الأسود؛ لتفرغينها في قلبك المريض، حتى إذا خلدت للراحة في آخر الليل، خلدت وفي صحيفتك ما يسوِّدها، وعلى ظهركِ ما يثقله، والأدهى أنَّ في قلبك نية الإصرار على المواصلة في الغد!

فأين حصاد العين اليوم من حصاد العين بالأمس؟! عينٌ كان الله يحبُّ بريقها إذا برقت، ويرعاها إذا نامت، فعينك كانت محفوظة في عين حفظه جلَّ في علاه.

أيتها العين ذكِّريني، أما كنتِ تنظرين لجمال جسد الكافر وكبر منزلته على أنه غنيمة كبيرة، وصيد ثمين تعودين به وبسلبه إلى رحلك، أوتحملين بشرى قتله إلى إخوانك، أو تفاوضين به على مالٍ عظيم توقدين به جهادك؟!

لِمَ أصبحتِ اليوم تحملين لعلج الصليب تعظيمًا، وإن لم يتحدَّث بذلك لسانك؟! كيف لا وهو القائد الفلاني، أو قائد منطقة كذا، أو المسؤول الكبير عن كذا وكذا، وبإشارته سوف يسخِّر لنا أكبر مسؤول في هذه البلاد!

أين هذه العين المستشرفة لوجوه هؤلاء، ولما في أيدي هؤلاء، من تلك العين التي كانت ترى الشرف في قطع أيدي هؤلاء وأرجلهم، وطردهم من بلادي؟!

كنتُ أحدِّث نفسي، فأقول: حتى وإن ذهبت العينان، وذهب نورهما بالعمى فذلك- والله- أعظم شهادة صدق لي، وشفاعة بدخول الجنة، كيف لا! والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (**لا يذهب الله بحبيبتي عبد فيصبر ويحتسب إلا أدخله الله الجنة**)[1].

إذا كان هذا أجر من ذهبت عيناه لمرض ونحوه، وصبر على ذلك، فكيف بمن ذهبت عيناه في سبيل الله وصبر؟!

وأما إن فُقأت إحداهما فذاك والله ختم الشرف العالي، أحمله في الدنيا إلى يوم القيامة.

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٣٢)، وصححه الألباني وشعيب.

قال ابن كثير: (وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنَّ قتادة بن النعمان رضي الله عنه أصيبت عينه يوم أحد حتى سالت على خدِّه، فردَّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[1]، ولهذا لما وفد ولده على عمر بن عبدالعزيز قال له من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه ... فردَّت بكفِّ المصطفى أحسن الردِّ
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسنها عينًا ويا حسن ما خدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه) [2].

فبالله عليك أيتها العين التي أصبحتِ- اليوم- متفرجة مع المتفرجين والمتفرجات، على أخبارنا من خلف الشاشات: ألا تلذعك أخبارُ إخوان الأمس، وصولاتهم الجهادية؟!

ألا تترجمينها نداءَ إحياءٍ جديد لك من وراء الهواء والفضاء: أن هلمَّ فميدان الجهاد ميدانك، وإخوة الجهاد إخوانك، أم أنَّ النداء في وادٍ، والقلب سقط ميتًا في وادي الصياد، فأصبح لا يشعر بهذا الوخز الذي تتلقاه العينان.

لا تنم الليلة حتى تجيب عن سؤال يُفترض أنه الآن في داخلك، يقول لك: كم بين عيني الآثمة اليوم، وبين عيني الحارسة بالأمس؟!

عفت عين السوء- اليوم- على خير أثر، وأُذهبت حسناتها بأسوأ أثر، وما عادت تشمئز من منظر شرار البشر!

يا إخوة الجهاد السابقين: لقد تحولت همةُ صائد الأمس إلى همة مصيدٍ يرتعد في موضعه، إذا رأى شبح صياده، أو سمع قعقعة "بسطاله"، أو أصوات أدراعه، أو عجمة كلامه!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٤٢/٧، وابن سعد ٤٥٣/٣، والبيهقي في "الدلائل" ٢٥٣/٣، وابن عساكر ٢٨١/٤٩.

(٢) البداية والنهاية ٣٣/٤-٣٤.

أيها المجاهدون: لا تستغربوا هذا الوصف لمن ترك ميدان الجهاد، فاحمدوا الله تعالى أنكم لم تتذوقوا طعم الذلِّ، ولم تتجرعوا كأسه، فكيف إذا كان كأسًا ممزوجًا من الذل، والنفاق، والجبن، والخوف، وسوء الظن بالله تعالى؟!

هذا حال العينين، فلا تسألوا- بعدها- عن حال الفرائص، والأرجل، والأيدي، فليس بعد وصف الله وصفٌ، وهو القائل سبحانه: ﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ (الأحزاب).

أين لسان الصدِّيق من لسان الزنديق؟!

عاتبتُ يومًا متخلِّفًا من المتخلفين، فقال لي بصراحة وتأثر: لا تزال كلمات شهيد يمشي على الأرض- نحسبه كذلك- في هذا الزمان حاضرة حية في ذاكرتي حين قال بعدما فاته ما فاته بسبب الاعتقال وأسمعنا بلسانه ما عاهد الله عليه قلبُه: لئن أشهدني الله مشهدًا آخر ليرينَّ الله ما أصنع. فيا له من وفيٍّ على طريقة أنس بن النضر رضي الله عنه وأرضاه، ذاك الذي عاهد اللهَ تعالى بعد أن فاتته غزوة بدر، وفاتت أخانا هذا صولاتٌ لجند الجهاد، فشهق عندها- صاحبنا- شهقة الصدْق تزفر من قلب صدِّيق تحرك بالعهد لسانُه. وجاءت ليلة الاختبار لهذا المجاهد، وأقبل العدوُّ بخيله ورَجِله، وسار أخونا إليه، وكأنه على موعد مع محبوب هو له مشتاق... فنسي ذاك المعاهدُ نفسَه، وتهاوى نحو العدوِّ متبخترًا كتبختر أبي دجانة في ميدان أُحد، حاملاً على الأرتال كحملة القعقاع ليلة الهرير(١)، مستعرضًا أمام الناس كاستعراض خالد، داخلاً بجسده فيهم كدخول الزبير صفوف الروم يوم اليرموك، طالبًا الموت طلب عكرمة لما رأى أمواج الروم المتلاطمة.

الناظر له يقول: مالأبي فلان؟! ماله، ماله؟! بينما هو يرى في تلك الجموع المواجِهة له حافزه وزاده وعرسه.

ولو كُشف الغيبُ عن أعيننا في تلك اللحظة لعذرناه، فمن رآه تلك الليلة أقسم بالله أنَّ صاحبنا رأى بعينيه- وهو يمشي بيننا- ثمنَ البيع في صورة حوراء تدعوه وهي تتطوى، أو روضة من رياض الجنة

---

(١) ليلة اليوم الرابع من أيام القادسية تدعى ليلة الهرير، قال ابن الأثير في "الكامل" ٨٢٣/٢: قيل إنما سميت بذلك؛ لتركهم الكلام إنما كانوا يهرون هريرًا.

تهتز، أو شمَّ رائحة من ريحان الجنة أطارت عقله! فكأنَّ رجليه غدت جناحين طار بهما نحو العدوِّ... فلو قاتلناه ليرجع إلى أهله وولده لما رجع والله!

كنت أقول ولا أزال: هنيئًا لك يا أبا فلان، الآن كُشف لنا الغيب، فإذا بالله قد كتب انضمامك لقافلة الشهداء المنصوصة في القرآن ونحن لا ندري، نحسبك كذلك والله حسيبك، **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿**مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾**﴾ (الأحزاب).

تُرى ما رسالتك لمن خلفك يا أبا فلان؟

هل تودُّ أن تكون عندنا؟

ولو كنت فهل ستصنع كما نصنع؟

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: (أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرُ فأصيب، ثم أخذها عبدُ الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرةٍ ففتح له). وقال: (ما يسرُّنا أنهم عندنا). قال أيوب: أو قال: (ما يسرُّهم أنهم عندنا)، وعيناه تذرفان[1].

وعن أنس رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإنَّ له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة)[2].

وقال معاهد مبدِّل متحسِّرًا: أنظرُ اليوم إلى عهودي التي **نطق بها لساني** يومًا، فلا أرى صورتها إلا في عهود طلاب الجهاد من بني إسرائيل الذين قرأت سيرتهم، واستغربت- يومها- تخلفهم في مسيرتهم، فاستكثرتها آنذاك، حتى أصبحتُ أنا وريثهم، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ**

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٦)، وأحمد ١١٣/٣ و١١٧، والنسائي ٢٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (٤٩٠٢)، وأحمد ١٠٣/٣ و١٧٣ و٢٥١، والدارمي (٢٤٠٩) والترمذي (١٦٦١).

مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ
عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا
مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ
لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ
كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا
وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ
وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ
ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة).

أذكر ذلك جيدًا، وأتطلّع في وجوه أصحابي الذين من حولي- الآن- فأرى منهم من تساقط في المرحلة الأولى عند أول الأمر بالجهاد، ومنهم من تساقط في النهر، ومنهم من تساقط بعد ذلك، وفي النهاية أننا لم نبق جميعًا ثابتين حتى النهاية!

ليس المهم كم كانت المسافة التي قطعها مجاهدو بني إسرائيل، وفي فترة كم من الزمن!

ليس المهم متى تساقط هذا الإسرائيلي أو ذاك، أو هذا العراقي أو ذاك!

المهم من الذي ثبت حتى الموت؟ من الذي وفّى بما عاهد اللهَ عليه وصبر؟ سواء كان لقاء العدوّ بعد نهر واحد، أو نهرين، أو ألف نهر، أم في بلاد الأنهر التي لا تعدُّ ولا تحصى.

أم كان لقاؤه بعد ساعتين، أم بعد سنتين، أم استمر وسقط قبل الموت بلحظة.

أرأيتم كيف أصبح أمرنا؟!

لا تستغربوا اطمئناننا للقعود، ولا فرحنا به... فإذا كان أولئك يفرحون بالتخلُّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف لا نفرح بالتخلف عنكم؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (التوبة).

هل من عزاء؟

كل ما يمكن أن يتصوره المرء من ثمرات الجهاد على حياة المجاهد يُسْلب منه بتخلُّفه، ولربما انقلبت تلك الثمرات إلى ضدِّها، فآثار التخلُّف تدميرية شاملة.

أرأيتَ رجلاً رقى إلى ذروة القمم خطوة خطوة، وبعدما استقرَّ على أعلاها، ارتدَّ على الأعقاب يرجع القهقرى، منحدرًا ينقلب إلى الوراء، خطوة إثر خطوة، فهل ترى هذه الخطوات المتسافلة سوف تستقيم على الطريق حتى النهاية؟!

إنَّ الأمنية بالنسبة لهذا الهابط هو أن يصل إلى الأسفل سالمًا، وهذا بعيد بعيد، لكنه وإن وصل سالمًا فسيفقد مزايا الذروة العليا كلها... إنه الحرمان بسلب مزايا ذروة سنام الإسلام!

وما مقتضى هذا الحرمان إلا تخلي الله تعالى عن تاركي الجهاد، وذهاب إعانته... فإذا ترك اللهُ عبدًا، فلا تسل في أيِّ وادٍ مهلكه! ولن يجد هؤلاء لهم عزاءً عن فضائل الجهاد، وإن ضربوا أودية الدنيا، أو عكفوا في محاريب الصالحات!

أين العزاء؟

لا وألف ألف لا، وزيادة لا، وما لا يُحصى من اللاءات أضعها في وجه كل من يحاول أن يزكِّي عملاً من أعمالهم العبادية متعزيًا به أومتسليًا عن الجهاد.

لا والله! لا عزاء، ولا سلوة، ولا عمل صالح، ولا عبادة خلوة أوجلوة!

لقد ذهبت رياح الأجر في تلك السوح، ولا تعويض ولو بقيتَ عليها العمر تنوح...!

حتى وإن اتحدت صورة العمل في أعين الناس مع نفس العمل في تلك السوح، فإنَّ لعبادة الجهاد، أو العبادة في الجهاد عند الذي رفع السماء ووضع الميزان ثقلاً آخر.

إليك الخوف مثلاً:

فأين خائف من العدوِّ في سوح الجهاد، من خائف من العدوِّ في سوح الدنيا؟!

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**ما من غازية أو سرية تغزو في سبيل الله، فيسلمون، ويصيبون، إلا تعجَّلوا ثلثي أجرهم، وما من غازية، أوسرية تخفق، وتصاب، إلا تمَّ لهم أجرهم**)[1].

أين منزلة هذا الخائف الطاهر المطهَّر العظيم، من منزلة خائف من مشرك معادٍ يرجو بِرَّه ويخاف ضُرَّه، قد خالط الشركُ قلبَ هذا الخائف حين نسي الله تعالى، وذكر عدوَّه، فتحوَّل من وليٍّ للرحمن إلى وليٍّ للشيطان؟! والله تعالى يقول عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا** ﴾ (الأنعام: ٨١).

أين خوفُ من صبَّر نفسه بين الصفين، وقلبه يرتجف خوفًا، فعلم الله ما في قلبه من خوف لوجهه سبحانه، مِن خوف مَن ترك الجهاد، وصبَّر قلبه خائفًا فوات العرَض الزائل!

أين خوفُ مَن ذلَّ لله، مِن خوف مَن ذلَّ للشيطان ولأوليائه؟!

أين منزلة خائفٍ وسط الأعداء يُنزل الله في قلبه السكينة، فإذا الحياة من حوله أمان، وإذا المخاوف سكينة واطمئنان، وإذا العدوُّ حارس في ذاك المكان، فلربما غشيته سِنة أونام، ولربما احتقر العدوَّ، ودخل فيهم غير هيَّاب ولا وجِل؟!

ولربما قام يصلي لله ركعتين والعدوُّ حوله يدور، ركعتين لم يتذوق مثلهما أبدًا، كأنهما ركعتا عمار في حراسته بسورة الكهف، والنشَّاب يقع في ظهره؟

أين هذا من وساوس خائفٍ مضطرب مرتبك من عدوٍّ في ميدان الدنيا أن يردَّه في معاملةٍ مادية، أو طلب شفاعة دنيوية، واللهُ لا يزيده إلا خوفًا على خوفه؟!

أيُّ عزاء لكم- أيها المتخلِّفون- حتى وإن اعتزلتم للعبادة؟! ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينصح صحابته رضي الله عنهم، وهم أعظم العباد عبادة، بترك ميدان الجهاد والتفرغ لعبادته سبحانه!

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩٦٠)، وأحمد ١٦٩/٢، وأبو داود (٢٤٩٧)، وابن ماجه (٢٧٨٥)، والنسائي (٣١٢٥).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشِعب فيه عُيينة من ماء عذبة، فقال: لو اعتزلتُ الناسَ فأقمتُ في هذا الشعب؟ ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (**لا تفعل، فإنَّ مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة**)[1].

قال الإمام ابن النحاس: (فُواق الناقة، بضم الفاء وتخفيف الواو وآخره قاف، قال الجوهري وغيره: هو ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تُحلب ثم تُترك سويعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ثم تحلب، انتهى. وقيل: هو ما بين أن تضع يدك على الضرع وقت الحلب وترفعها. وعلى هذا فيكون من باب المبالغة في التحريض على القتال والترغيب فيه، لا من باب إرادة حقيقة اللفظ)[2].

وقال أيضًا: (يا هذا، ليت شعري من يقوم مقام هذا الصحابي في عزلته وعبادته وطيب مطعمه، ومع هذا فقد قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تفعل)، وأرشده إلى الجهاد، فكيف لواحد منا أن يتركه مع أعمال لا يوثق بها مع قِلَّتها، وخطايا لا ينجى معها لكثرتها، وجوارح لا تزال مطلقة فيما مُنعت منه، ونفوس جامحة إلا عما نهيت عنه، ومآكل حُكْمُ حِلِّها عند رازقها، وخواطر عِلْمُ أصلها عند خالقها، ونيات لا يتحقق إخلاصها، وتبعات لا يرجى بغير العناية خلاصها ثم النظر في خواتم الأعمال، مجال الخطر وعظائم الأوجال؟! فالسعيد من وفَّقه اللّٰه للجهاد ويسَّره عليه، والشقي من جبن فغبن وظهر الخسران عليه، اللهم يسّر علينا الجهاد ويسِّرنا له، واجعلنا بفضلك ممن رام أمرًا فناله، وقرنت بالتوفيق أحواله وأفعاله، إنك قريب مجيب)[3].

لا تقارن نفسك بهذا الصحابي حتى لو أذِن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك أنَّ الصحابي لم يُرد التخلُّف عن الجهاد، إنما جاء يريد الخيار بين الاثنين، مبتغيًا الأفضل من الأعمال، راغبًا في الخلوة بالله ولله ومع الله عند هذه العُيينة من الماء...

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٦/٢ و٥٢٤، والترمذي (١٦٥٠)، وقال: هذا حديث حسن. وحسَّنه الألباني، وقال شعيب: حديث صحيح .

(٢) مشارع الأشواق ١٥٢/١.

(٣)المصدر نفسه ١٥٣/١.

فبأيِّ شيء تحاول أن تجد عزاءك اليوم وأنت المتخلِّف عن ميدان الجهاد؟!

هل تجده في السعي على الأهل بسيارتك ذاهبًا وآيبًا، تريد أن يكتب الله لك خطواتك بعد تخلُّفك؟!

هيهات فيوم كنت في الجهاد كنت أنت ومركوبك وآثاره ومخلفاته كلها في ميزانك، ثقلاً مرجِّحًا كفتك، فماذا تجد من هذا في كفة سعيك اليومي في طرائق الدنيا؟!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**الخيل ثلاثة: هي لرجل وزر، وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر. فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياءً وفخرًا ونواءً لأهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم ينس حقَّ الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج، أو روضة، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مرَّ بها صاحبها على نهر فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله تعالى له عدد ما شربت حسنات**). **قيل: يا رسول الله فالحمر؟ قال:** (**ما أنزل عليَّ في الحمر إلا هذه الآية الفاذة الجامعة:** ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨** ﴾)[1].

هيهات، حتى لو كنت تراوح من بيتك إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلن تنال منزلة المجاهد.

هل تجد عزاء التخلُّف عن الجهاد في الإكثار من ذكر الله تعالى؟

لا والله، ولا يومًا واحدًا من أيام الجهاد! فيوم واحد من تلك الأيام لو استمرت بلا رِدَّة لساوت الدنيا بأكملها وزيادة! بل لو كانت رَوْحةً واحدة، أو غدوة واحدة، أو أقل من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٢٢٥٢)، وأبو داود (١٦٥٩)، والنسائي ٦/٢١٦.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها**)(1).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **دلَّني على عمل يعدل الجهاد؟** قال: (**لا أجده**). قال: (**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟**) قال: **ومن يستطيع ذلك؟** فقال أبو هريرة: **إنَّ فرس المجاهد ليَستنُّ في طِوَلِه فيُكتبُ له حسنات**(2).

فكيف وقد جمع أولئك المجاهدون بين جهادهم وذكر الله تعالى الذي لا يكاد يفتر؟! هذه هي الحقيقة التي وجدناها، وهو ما أمر الله تعالى به إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنفال).

وقال لهم بعد صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النساء).

لا تقل بعد الإدبار: أتعزَّى بالإنفاق، اللهم إلا إن كنت كُلِّفت به كجزء من الجهاد الذي وُكِّل إليك، وإلا فلا عزاء للمُدْبِر في إنفاقه!

ولعلك تظنُّ أنك وجدت سلوتك بعد التخلُّف بالعبادات!

أيُّ عزاء في عبادة من العبادات بعد ترك الجهاد؟! وسلمان رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان**)(3).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٢)، وأحمد ٤٣٣/٣، و٣٣٠/٥ و٣٣٥، والترمذي (١٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (٤٩٧٧)، وأحمد ٣٤٤/٢ و٤٢٤ و٤٥٩، والترمذي (١٦١٩)، والنسائي ١٩/٦.

(٣) أخرجه أحمد ٤٤١/٥، و٥١/٦، والترمذي (١٦٦٥) وقال: حسن صحيح. والنسائي ٣٩/٦، وصححه الألباني وشعيب.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**كلُّ ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر**)[١].

قال الإمام ابن النحاس: (قال القرطبي في تفسيره: في هذين الحديثين- يعني حديث سلمان وحديث فضالة- دليل على أنَّ الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، كما جاء في حديث أبي هريرة: (**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**). فإنَّ الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد، والرباط يضاعَف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب، فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة، وهذا لأنَّ أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدوِّ، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام، انتهى كلامه[٢]. وهو مليح جدًّا فتأمله) [٣].

وعن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه، أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حُنين فأطنبوا السير، حتى كان عشية، فحضرت صلاة الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: (تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله تعالى). ثم قال: (من يحرسنا الليلة؟)، قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: (اركب)، فركب فرسًا له، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (استقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه ولا تَغُرَّنَّ[٤] من قبلك الليلة)، فلما أصبحنا خرج رسول

---

(١) أخرجه أحمد ٢٠/٦ و٢٢، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١) وقال: حسن صحيح، والنسائي في "الكبرى" كما في "تحفة الإشراف" ١١٠٣٨/٨، وابن حبان (٤٦٢٤). وصححه الألباني وشعيب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٥/٤.

(٣) مشارع الأشواق ٣٧١/١- ٣٧٢.

(٤) قال في "عون المعبود" ١٢٩/٧: (أي لا يجيئنا العدو من قبلك على غفلة، كذا في فتح الودود).

الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مصلاه فركع ركعتين، ثم قال: (هل أحسستم فارسكم؟). قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه. فثوَّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ صلاته وسلَّم، قال: (أبشروا فقد جاء فارسكم)، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشِّعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشِّعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحدًا. فقال له رسول الله ﷺ: (هل نزلت الليلة؟). قال: لا، إلا مصليًا أو قاضي حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: (قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها)[1].

لا عزاء لك– أيها المتخلف– عن الجهاد، ولو تشاغلت عنه بطلب العلم، أو بالتعليم بعد التخلُّف!

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في غزوة خيبر... الحديث وفيه: قال: فلما تصافَّ القوم، كان سيفُ عامرٍ، يعني ابن الأكوع، فيه قصر، فتناول به يهوديًا؛ ليضربه ويرجع ذباب سيفه[2] فأصاب ركبةَ عامر فمات، فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ شاحبًا، فقال لي: (مالك؟)، فقلت: فدى لك أبي وأمي، زعموا أنَّ عامرًا أُحبط عملُه. قال: (من قاله؟)، قال: فلان، وفلان، وأسيد ابن الحضير الأنصاري. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**كذب من قاله،**[3] **إنَّ له لأجرين**– وجمع بين أصبعيه– إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربيٌّ مشى بها مثله)[4].

خطأُ العالم المجتهد بأجر واحد، وخطأُ المجاهد بأجرين، فمَن مثل المجاهد؟!

وهل يُطلب العلم إلا لمثل هذا؟! ثم هل يُطلب العلم لشيء أكرم من هذا؟!

وهل من قيمة للعلم إذا أصبح صاحب العلم من الخوالف؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٩١٦) و (٢٥٠١)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨١٩)، وابن خزيمة (٤٨٧)، والحاكم (٢٤٣٣). وقال الألباني: صحيح.

(٢) ذباب سيفه: طرفه الذي يضرب به.

(٣) قال في "فتح الباري" ٧/٤٦٧: أي أخطأ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧٧)، ومسلم (٤٦٩١)، وأحمد ٤/٤٧ و٤٨ و٥٠، وابن ماجه (٣١٩٥). وجاء في بعض الروايات مطولاً وفي أخرى مختصرًا. وقوله صلى الله عليه وسلم: (قلَّ عربي مشى بها مثله). قال في "الفتح": (الضمير للأرض أو المدينة أو الحرب أو الخصلة).

وخرَّج الخطيب في "تاريخ بغداد"، عن محمد بن الفضيل بن عياض، قال: رأيتُ ابن المبارك في النوم، فقلت: أيُّ العمل وجدتَ أفضل؟ قال: الأمر الذي كنتُ فيه. قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم. قلت: فما صنع بك ربك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة.[1]

والرسالة من ابن المبارك لها مزية خاصة! رسالة من إمام في الميدان، جمع الإمامة في مختلف الأعمال، فقد وجد ابن المبارك حقيقة الحصاد، ونتائج الأعمال، وعرف الأثقل والأعلى والأحب عند الله سبحانه.

رسالة ممن كان شيخًا للأئمة الأعلام أمثال البخاري، وكان العلم له ميدانًا في تدريس، وتأليف في مختلف العلوم.

ومع كل هذا يوصل ابن المبارك لنا هذه الرسالة... كيف إذا عرفنا أنَّ جهاد ابن المبارك جهادُ فتوح وطلب، وجهادنا جهاد دفع عن الإسلام وبلاد الإسلام، والضرورات التي جاءت جميع الأنبياء لحفظها.

وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله– يعني أحمد بن حنبل– وذُكر له الغزو، فجعل **يبكي** ويقول: ما من أعمال البر شيء أفضل منه. وقال عنه غيره: ليس يعدل لقاء العدوِّ شيء، ومباشرة القتال بنفسه أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدوَّ هم الذين يدفعون عن الإسلام وعن حريمهم، فأيُّ عمل أفضل منه؟! الناس آمنون وهم خائفون، قد بذلوا مهج أنفسهم. ذكره صاحب المغني[2].

وخرَّج ابن عساكر بإسناده، عن المفضل بن فضالة، عن أبيه، قال: استأذن قوم على عبد الملك ابن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض، فدخلوا عليه، فقال: إنكم دخلتم عليَّ في حين إقبال آخرتي وإدبار دنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدته غزوة غزوتها في سبيل الله، وأنا خِلو من هذه الأشياء، فإياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها.

قال ابن النحاس: (كان عبد الملك رحمه الله من علماء التابعين، وكان معاوية رضي الله عنه قد استعمله على المدينة وهو ابن ست عشرة سنة، فركب بالناس البحر غازيًا)[3].

---

(١) تاريخ بغداد ١٦٨/١. ولا يخفى أنَّ الرؤى يُستأنس بها ولا يؤخذ منها حكم شرعي.

(٢) المغني ٣٤٨/٨ -٣٤٩.

(٣) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ١٤٥/١.

وهكذا كلما حاولت أن أتعزَّى بشيء بعد تركي ساح الجهاد صدمني حديثٌ بصدمة، تقول: **لا عزاء لك** إلا بالعودة لذاك الميدان، ولا فضل كفضل هذا الميدان، ولوكان قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود.

وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان في الرباط، ففزعوا إلى الساحل، ثم قيل: لا بأس، فانصرف الناس، وأبو هريرة واقف، فمرَّ به إنسان فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**)[1].

هذا رباط من غير جهاد، فكيف لو اجتمعا وتحقق ما تخوَّف منه المرابط من هجوم العدوِّ.

قال ابن النحاس : (الرباط المطلوب عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر يتوقع فيه نزول العدو، بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد مَن فيه مِن المسلمين، وكلما كان الخوف أشدَّ في مكان، كان الرباط فيه أفضل، والثواب أجزل، وسواء كان ذلك المكان ساحل بحر، أو غيره...

من كان ساكنًا بثغر لا يربطه فيه إلا توقع الجهاد أو قصد الحراسة، ولو شاء أن يرحل عنه لرحل من غير مشقة عليه في الرحيل أنه مرابط، وله أجر الرباط، وإن كان معه أهله وولده أو كان له فيه سبب بشرط أن يكون لو عرض عليه زوجة أجمل من زوجته، أو سبب أوسع من سببه أو غير ذلك بمكان ليس بثغر، لما خرج من الثغر رغبة فيما عرض عليه، فإنَّ الأعمال بالنيات، وما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يسكنون الثغور بأهلهم وأولادهم بنية الرباط)[2].

(١) أخرجه ابن حبان (٤٦٠٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٢٨٦)، وصححه الألباني وشعيب.

(٢) مشارع الأشواق ١/٤٠٨-٤٠٩.

خاتمة الفصل

مادام لهذا الخطاب في قلبك أقل إحساس بجواب... فاعلم أنَّ ذرة إيمان- أو أكثر- مازالت في قلبك باقية، وإنك إن راعيتَ تلك الذرة أنارت القلب كلَّه، وأعادتك الذرَّة ثانية إلى الذروة- بإذن الله جلَّ في علاه- لكن ما أسرعِ مَن فقد جبال الإيمان أن يفقد الذرَّة!

أوقِد على هذه الذرَّة بالعَوْدة للقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وستعيدك بإذن الله إلى الميدان.

أَحْيِ هذه الذرَّة بمفارقة مجاميع النفاق، وإن قرب نسبهم أو لزمتْ صحبتهم.

وثِّق هذه الذرَّة بعهد جديد تعقده ولا تحله حتى لقاء الله تعالى!

ادخل الفصل القادم، إذ هو فصل عهود من لم يبدِّلوا تبديلاً!

الفصل الثاني

عهود القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (آل عمران).

المقدمة:

توثيق العهود

إن وجدتَ سرَّ الحياة في هذه العهود، فذلك لارتباطها بمصدر الحياة، وبكلمات الله العظيمة التامة الكريمة من كتابه الكريم، فهلمَّ ننظر فيها من جديد، وسوف نراها غيثًا جديدًا يغيثنا كلَّ مرة بجديد، يحيينا في هذه المرحلة والمراحل القادمة بإذن الله، بعدما أخذ التعثر من المرحلة الجهادية الماضية ما أخذ، **وقد كان أعظم مصاب المجاهدين من المنافقين، وكان الواجب تأصيل الموقف من المنافقين تأصيلاً من الكتاب والسنة، وفَهْم كلام الله تعالى الفهم الواسع الشامل، ومعرفة أسباب النزول الصحيحة، وحُسْن تنزيلها على الواقع، مع العمل على أحسن وجهٍ بالقاعدة العظيمة: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)**، واليقين عند النظر في الآيات بأنَّ واقعنا هذا الذي نراه لم يخرج عن علم الله أبدًا، ولم يتجاوز كتاب الله قِيد شعرة، مع وجوب دقة الانتباه إلى أنَّ كل آية من تلك الآيات التي ذكرت المنافقين، أو أعمالهم، أو أوصافهم، أو أقوالهم، إنما تقتضي عملاً معينًا ينبغي للمؤمنين أن يقوموا به.

ومن قال: لا ينبغي تنزيل الآيات على الواقع العراقي بتكلُّف.

أقول: نعم، ذاك هو التكلُّف المنهي عنه في القرآن وفي السنة، المنهي عنه حتى في الكلام العادي، والعمل، والخُلُق، فربنا جلَّ جلاله ينفي التكلُّف عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص).

أما إذا كان تنزيل الآيات على واقعنا تنزيلاً مناسبًا وصحيحًا فهذا أمر مطلوب ومهم.

وإلا فهل المطلوب أن ننحّي القرآن عن واقعنا؟!

وأيُّ مكسب للعدو أكبر من أن نقطع مصدر حياتنا عن حياتنا، ونخرجه من معركتنا؟!

هل تريدون أن نُبعد أعظم أسلحتنا عن الميدان؟! أم تريدون أن نُبعد أعظم ما يكشف النفاق والمنافقين؛ ليتفرغوا لنا؟!

حتى إذا ما انتهت المعركة بعد ذلك، وعدنا لنقرأ القرآن عضضنا عندها أصابع الندم قائلين: ليتنا قرأناه أثناء المعركة.

لقد كتبتُ ما كتبت من تنزيل للآيات على واقعنا العراقي وأنا مطمئن لهذا المنهج، بل كنتُ والله متعجبًا أشدَّ العجب في أحيانٍ كثيرة لما في الآيات من أسرار معركتنا خاصة! وما فيها من أسرار منافقينا خاصة! وما فيها من أسرار انتصاراتنا خاصة! ومن أسرار علاقاتنا بعضنا مع بعض نحن العراقيين خاصة!

نعم والله، عجبت من ذلك، وعجبت، وعجبت، ولكن ليس من أمر الله عجب...

ثم عجبت كذلك عندما وقع بين يديَّ وأنا في مرحلة مراجعة البحث النهائية تنزيلاً أوسع من تنزيلنا بكثير... تنزيل شيخ الإسلام ابن تيمية الآيات على واقعهم في الشام يوم دهمهم التتار، بل تمثيله ما أصابهم مع التتر بما أصاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم الخندق، وتفسيره الآيات على ذلك، فحمدًا لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فتأمل ماذا يقول شيخ الإسلام: (فإنَّ هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدوِّ المفسد الخارج عن شريعة الإسلام، قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا إلى يوم القيامة، فإنَّ نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي، أو بالعموم المعنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قصَّ الله علينا قصص من قبلنا من الأمم؛ لتكون عبرة لنا، فنشبِّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين، كما قال تعالى لما قصَّ قصة يوسف مفصَّلة، وأجمل ذكر قصص الأنبياء ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ (يوسف: ١١١)، أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يُفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب وفي السير المكذوبة...

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ (النازعات). وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ (آل عمران). وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾ (الحشر).

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم، وذكر في غير موضع أنَّ سنته في ذلك سنة مطَّردة، وعادته مستمرة. فقال تعالى: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ (الأحزاب). وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ (الفتح).

وأخبر جلَّ جلاله أنَّ دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشَّر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يُجتث ويُخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظنَّ المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنَّ ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدًا، وزُيِّن ذلك في قلوبهم، وظنوا ظنَّ السوء، وكانوا قومًا بورًا، ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميَّز الله

فيها أهل البصائر والإيقان، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفَّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى.

فإنَّ الناس تفرَّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرَّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرَّ الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه، إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه، وكان من الناس مَنْ أقصى همته النجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أنَّ منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع، وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى، وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكتمها الضمائر، وتبين أنَّ البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل، وذم سادته وكبراؤه من أطاعهم فأضلوه السبيل، كما حمد ربه من صدق في إيمانه، فاتخذ مع الرسول سبيلاً، وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدَّثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة.

حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب، **حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام.**

وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غرَّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزًا من الله وتقسيمًا، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾)[1].انتهى كلامه رحمه الله.

ولا يزال المسلمون منذ عهد عمر رضي الله عنه يقرؤون بعض سورة آل عمران، ويقرؤون سورة الأنفال، وسورة القتال على الجيش قبل معارك الإسلام الحاسمة.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٤٢٥-٤٢٩.

فلزم أن نفهم القرآن الفهم الصحيح، الفهم المعتمد على تفسير القرآن بالقرآن، وصحيح السنة وأقوال العلماء، الفهم المرتبط بحياتنا، المصحح لطريقنا؛ **كي نغلق الأبواب التي يتسلل منها المنافقون، ونسوِّيَ بالأرض الأكمات التي يكمن خلفها الزنادقة والمتربصون**... وإنه لأمر عظيم يحتاج إلى عهود نتعاهدها، ووصايا نتواصى بها، ولذا سميتها "**عهود القرآن**"، وما من عهد إلا وأنتج "وصايا" عملية.

فاللهم اشهد عهودنا، واجعلنا ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأعنَّا على الوفاء :﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾**﴾ (الفتح).

فأنعم بقلوب استخلصت عهودها من القرآن، وأنعم بأيادٍ جعلت صفقتها "عهود القرآن".

فاللهم اشهدها من عهود، ووثق مصافحتها في البيعة على تلك البنود، واجعل لنا نصيبًا من تشريفك لمن قلت فيهم: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾**﴾(الفتح).

العهد الأول: إخلاص المحسنين في الجهاد

قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأحزاب).

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: يحسب هؤلاء المنافقون الأحزابَ، وهم قريش وغطفان... وقوله: ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ يقول: لم ينصرفوا، وإن كان قد انصرفوا جبنًا وهلعًا منهم... وقوله: ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن يأت المؤمنين الأحزابُ وهم الجماعة، واحدهم: حزب. ﴿ يَوَدُّوا۟ ﴾، يقول: يتمنوا من الخوف والجبن أنهم غُيَّب عنكم في البادية مع الأعراب خوفًا من القتل، وذلك أنَّ قوله: ﴿ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾، تقول: قد بدا فلان إذا صار في البدو، فهو يبدو، وهو بادٍ. وأما الأعراب: فإنهم جمع أعرابي، وواحد العرب: عربي، وإنما قيل: أعرابي لأهل البدو، فرقًا بين أهل البوادي والأمصار، فجعل الأعراب لأهل البادية، والعرب لأهل المصر. وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾، يقول: يستخبر هؤلاء المنافقون- أيها المؤمنون- الناس عن أنبائكم، يعني عن أخباركم بالبادية، هل هلك محمد وأصحابه؟ يقول: يتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ألا يشهدوا معكم مشاهدكم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، يقول تعالى ذكره للمؤمنين: ولو كانوا أيضًا فيكم ما نفعوكم، وما قاتلوا المشركين، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، يقول: إلا تعذيرًا؛ لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب)[1].

وقال القاضي ابن عطية الأندلسي: (ثم سلَّى اللهُ تعالى عنهم، وحقَّر شأنهم، بأن أخبر أنهم لو حضروا لما أغنوا، ولما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً لا نفع له، **قال الثعلبي: هو قليل من حيث هو رياء من غير حسبة، ولو كان لله لكان كثيرًا**)[2].

---

(١) جامع البيان ٢١/١٤٢-١٤٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٧٧.

وقال البغوي: (﴿ **وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا** ﴾، تحذيرًا، أي: يقاتلون قليلاً، يقيمون به عذرهم، فيقولون: قد قاتلنا)[1].

وقال البقاعي: (﴿ **وَلَوْ** ﴾، أي: والحال أنهم لو ﴿ **كَانُوا فِيكُم** ﴾، أي: حاضرين لحربهم ﴿ **مَّا قَاتَلُوا** ﴾، أي: معكم، ﴿ **إِلَّا قَلِيلًا** ﴾، نفاقًا، كما فعلوا قبل ذهاب الأحزاب من حضورهم معكم تارة، واستئذانهم في الرجوع إلى منازلهم أخرى، والتعويق لغيرهم بالفعل كرّة، والتصريح بالقول أخرى)[2].

إنَّ المفسرين جميعًا متفقون على أنَّ قتال المنافقين، إن قاتلوا، فهو قتال رياء وسمعة، كما قال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)** ﴾ (النساء).

هكذا هو قتالهم على وجه الحقيقة حتى وإن رأى الناس أنَّ الجميع مؤمنون حين رأوا أنهم قد استووا في قتال الكفار، كما استووا في صورة القتل في سبيل الله، إلا أنَّ الله سبحانه قد اطلع على ما في قلب هذا وما في قلب ذاك. فأما قلب هذا المؤمن المخلص فليس فيه إلا تعظيم الله سبحانه. وأما قلب ذاك المنافق فالشركاء فيه يتزاحمون، فلا هو من آخرته التي أضاعها، ولا هو من دنياه التي خسرها، وروحه التي أزهقها!

ولقد كشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصحابته ما دار في ساح الصدور بشكل واضح وأمثلة حية في ساح المعركة، فرأوا ذلك أمام أعينهم، رأوا أشخاصًا يعرفونهم، يعجبون بشجاعتهم، بفدائهم، بسبقهم الصحابة إلى الموت، هاهم سقطوا في المعركة، دماؤهم تفور، تعالوا اسألوهم، وتيقنوا بأنفسكم.

(١) معالم التنزيل ٥١٩/٣.

(٢) نظم الدرر ٩٠/٦.

فمن ذلك ما روى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل لا يدع لهم شاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه... الحديث، وفيه: فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: (وما ذاك؟)، قال: الرجل الذي ذكرتَ آنفًا أنه من أهل النار، فأعظَمَ الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه حتى جُرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. الحديث[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لرجل ممن يدَّعي الإسلام: (**هذا من أهل النار**). فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديدًا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الرجل الذي قلت أنه من أهل النار قاتل اليوم قتالاً شديدًا، وقد مات، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**إلى النار**)، فكاد بعض القوم يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل: فإنه لم يمت ولكن به جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال: (**الله أكبر أشهد، أني عبد الله ورسوله**). ثم أَمر بلالاً فنادى في الناس: (إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإنَّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[2].

أيها المجاهد: ليكن العمل ما يكون عظمة في أعين الناس، فهل هناك أعظم من الصلاة والقرآن إذا اجتمعا؟ وهل هناك أعظم من الجهاد والشهادة إذا اجتمعا؟ وهل هناك أعظم من الإنفاق والكثرة في الإنفاق إذا اجتمعا؟

انظر إذن، ماذا صنع الرياءُ في هؤلاء الثلاثة لما خالط قلوبَهم؟ وانظر ماذا صنع هذا الحديث في الأولين؟ وانظر إلى تأثيره في نفسك مهما كان بعدك عن الرياء؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (٢٢١)، وأحمد ٣٣١/٥ و٣٣٥، وعبد بن حميد (٤٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١)، وأحمد ٣٠٩/٢، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٣٣).

فقد صح أنَّ شفيًّا الأصبحي دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه حتى قعدتُ بين يديه وهو يحدِّث الناس، فلما سكتَ وخلا، قلت له: أسألك بحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقلته وعلمته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقلته وعلمته. ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا طويلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح عن وجهه، فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته طويلاً ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد؛ ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله عزَّ وجلَّ للقارئ: ألم أعلِّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله عزَّ وجلَّ: كذبتَ. وتقول له الملائكة: كذبتَ. ويقول الله تعالى: بل أردتَ أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملتَ فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبتَ. وتقول الملائكة كذبتَ. ويقول الله تعالى: بل أردتَ أن يقال: فلان جواد، وقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قتلتَ؟ فيقول: أي رب، أمرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلتُ، فيقول الله له: كذبتَ. وتقول له الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ركبتي، فقال: (يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة). قال الوليد أبو عثمان المدني: وأخبرني عقبة، أنَّ شفيًّا— هو الذي دخل على معاوية— فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيَّافًا لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق

الله ورســوله، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1] (هود).

إنَّ هذا الحديث من الخطورة بحيث يجعل كلَّ مجاهد على وجل عظيم لا يكاد يفارقه حتى يلاقي ربه، فيعلم حينها أنه ليس ذاك الرجل الذي ذكره المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، **فمهما قال الناس عنه أو تحدثوا عن إخلاصه وشجاعته فإنَّ لسان حاله يقول: لا،** حتى ألقى الله... فقد قيلت المدائح لمن كان أشجع مني في عصور خير من عصري فأمنوا واطمأنوا حتى لاقوا الله وهو عليهم غضبان... فطلبوا العودة وما مُكِّنوا!

لا، فلستم- أيها المادحون- أكثر معرفة بحقائق الرجال من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومع هذا شهدوا لرجل بأنه من أهل الجنة، فإذا به من أهل النار! وتكرر الأمر معهم مرارًا!

لا، فنحن أعلم بأنفسنا من أصحاب المنامات، كما قال الإمام أحمد.

لا، حتى تخرج هذه الروح من هذا الجسد!

وكما أنَّ الرياء خطير ويفعل بصاحبه ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ للإخلاص منزلة عظيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ عمرو بن أقيش كان له رِبا في الجاهلية، فَكَرِه أن يُسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأمته، وركب فرسه، ثم توجه قِبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنتُ. فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال لأخته: سليه، حميَّةً لقومك أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله ورسوله؟ قال: بل غضبًا لله ورسوله. فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة[2].

---

(١) أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" ص٤٢، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في "الكبرى" (١١٨٢٤)، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والحاكم (٢٥٣٣). وحسنه الألباني.

الوصايا(١):

الوصية الأولى: احتط لإخلاصك ما استطعت

لا بد لكل فرد مجاهد مهما كان مغمورًا وسط الصفوف أن لا يفتح على الإسلام ثغرة يدخل منها العدوُّ حين يفتح في قلبه للرياء ثغرة يدخل منها الشيطان.

فاحتط لإخلاصك بأسوار وأسوار وأسوار، فلعلك تسلم من تسلل هذا الرياء المدمر الذي يطلب افتراس إخلاصك متى وجده، فغذاؤه الوحيد هو إخلاصك، فإنه يتغذى منه وإلا مات، فهو يقاتل قتال المستميت الذي يرى بقاءه مرهونًا بالقضاء على إخلاصك!

احتط لإخلاصك عند الحديث عن نفسك، بل عند السكوت، وإياك ثم إياك أن تتخفى بالعبارة؛ ليفهم السامعون أنك تتخفى، وأنَّ ما عندك أكبر مما أدركوه بفطنتهم! فذلك هو صيغة مركبة تخادع بها نفسك وتخادع الآخرين، تريد أن يحسبها لك الله إخلاصًا، وأنت تعلم أنَّ ذلك لا يخفى عليه سبحانه!

احتط لإخلاص جهادك بفيض الدموع تسقي بها بذرة الإخلاص في خلوتك مع الله.

احتط لإخلاص جهادك بدوام استغفارك حتى يجلو القلب، وتتطهر الصحيفة من الذنب.

احتط لإخلاص جهادك بدعاء من اطَّلع على الحقيقة، وإن خفيت عن كل عين، بأن يرزقك الإخلاص، ويعيذك من الشرك ظاهرًا وباطنًا.

احتط لإخلاص جهادك بصلاتك، فميزان القرب الضابط لحركة الحياة مع الإيمان وللإيمان مع حركة الحياة هي هذه الصلاة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (هود).

(١) الوصايا: جزئيات عملية تعين على الوفاء بالعهد، ويتبين من خلالها مقتضيات عملية محددة للعهد الذي استخلصناه من الآية وأخذناه على أنفسنا.

إياك أن تفهم أنَّ الاحتياط للنفس إنما يكون بالإحجام عن الجهاد والعمل الصالح، فالقعود هو مراد الشيطان منك ومنتهى أمانيه، ولكنَّ الاحتياط بمزيد الإقدام، ومزيد العمل، مع مزيد الإخلاص.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله، أنَّ عبدة بن سليمان رحمه الله قال: كنا في سرية مع عبدالله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو، فلما التقى الصفَّان خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فطعنه فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه الرجل فقتله، فازدحم الناس عليه فكنت فيمن ازدحم عليه، فإذا هو ملثم وجهه بكمه، فأخذتُ بطرف كمه فمددته، فإذا هو عبدالله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنِّع علينا.

قال ابن الجوزي: (فانظروا رحمكم الله إلى هذا السيد المخلص كيف خاف على إخلاصه برؤية الناس له، ومدحهم إياه، فستر نفسه)[1].

الوصية الثانية: إياك وفِلم الزور

يستغل البعض وضع الساحة الجهادية الصعب إعلاميًا، فيذهب ليستثمر هذه الفجوة مستخدمًا علاقاته وعلاقات فصيله ببعض الإعلاميين؛ لينسب لنفسه أعمالاً جهادية يعلم الله سبحانه أنه لم يعملها، ويذهب الفصيل يخرجها للإعلام باسمه زورًا وبهتانًا... وهذا فيه من المخالفات الشرعية الكثير...

أولها: الكذب المنهجي، حيث المنهجية التي تربي الأفراد على الكذب، وتكافئ الكذاب، وتقمع المخلص الصادق الذي ينكر هذا المنكر في الجماعة، حتى يستقر هذا المنهج فيصبح صفة لتلك الجماعة الكاذبة إعلاميًا، يعلو فيها أكثر الأفراد كذبًا.

ثانيها: لباس ثوب الزور، فالعملية الجهادية التي عملت ولم تنسب لأحد لظروف الجهاد المعروفة، ويعلم الله سبحانه أنها لفلان من الناس، وأنه غالبًا ما يتبع جماعة جهادية معروفة، وأحيانًا غير مشهورة، فيقوم فصيل ما معروف باقتطاف ثمرات الآخرين، ويعلن نسبتها لنفسه، فيقع الآخرون في حرج، فإنهم إن جاؤوا بعد ذلك وأعلنوا أنهم أصحاب العملية الحقيقية، وقالوا الحقيقة، قال لسان الشارع العراقي لهما: أحدكما كاذب.

---

(١) تلبيس إبليس ص١٤٧.

وإن سكتوا ازداد أولئك في تماديهم. وهنا أسأل هؤلاء: ألهذا التصرف علاقة بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**الحرب خدعة**)[1].

إنَّ الواقع أنَّ خداعك مع الفصائل الأخرى وليس مع الصليبيين وعملائهم...

وهل ترضى أن يُفعل هذا الفعل معك؟! وماذا لو فعلوا؟ هل ستكتفي بالسكوت أم ستصعِّد الأمر إلى أعلى درجة؟!

هل سألتم أنفسكم- يا قادة هذا الفصيل وأفراده- ماذا لو كان عند أصحاب العملية تصوير يظهر كذبكم؟!

أليست فضيحة لكم؟!

يا من نسبتم إلى الجهاد العراقي: إنَّ ما تجمعونه من حسنات ولو كانت جبالاً من الخيرات عظيمة فإنكم تبطلونها في لحظتها بالمراءاة والمسامعة... فلم هذا العناء، ومصير الوجه الذي تعمل له الفناء؟!

أيها المجاهدون: أما مرَّ عليكم حديث يصوِّر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم صنيعكم هذا بتبني مكتسبات الآخرين بصورة معينة؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**)[2].

ومع كل هذا، فوالله لو أكل فصيل كذاب ثمرات المجاهدين الصادقين في الإعلام، لما رفعهم تعالى في الدنيا ولا في الآخرة.

فعن أسماء رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إنَّ لي ضرة، فهل عليَّ جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**المتشبع**[3] **بما لم يعط كلابس ثوبي زور**)[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (٤٥٦٠)، والحميدي (١٢٣٧)، وأحمد ٣٠٨/٣، وأبو داود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٥٨٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤٥٦/٣ و٤٦٠، والدارمي (٢٧٣٠)، والترمذي (٢٣٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٣٢٢٨). وقال الألباني: صحيح، وقال شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المتشبع بما لم يعط: هو الذي يتشبه بالشبعان وليس به، ولذا شُبِّه بلابس ثوبي زور، أي: الذي يزور على الناس فيريهم أنه يلبس ثوبين وليس عليه إلا ثوب واحد.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٥٧٠٥)، وأحمد ٣٤٥/٦ و٣٤٦ و٣٥٣، وأبو داود (٤٩٩٧)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٧٢).

هذه امرأة أرادت إغاظة ضرتها بزعم كاذب استحقت ثوب الزور، لو أنها فعلت، وحاشاها، فكيف بمن ادعى حقَّ غيره كذبًا، وابتزَّ من تلك الدعوى من أموال الناس ومعوناتهم كذبًا؛ ليوصف بالشجاعة والنجدة وما إلى ذلك بناءً على هذا الكذب؟!

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (**رأيت الليلة رجلين أتياني...**)، **الحديث، وفيه**: (**قالا: أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يكذب الكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة**)[1].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)، ثلاثًا، (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، وقول الزور). وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2].

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص).

قال ابن كثير رحمه الله: (لا يريدون علوًا في الأرض، أي: ترفعًا على الخلق، وتعاظمًا عليهم)[3].

كانوا حرَّاسًا على الإخلاص خشية أن يدخل الرياء أو الإعجاب أو مدح الناس إلى قلوبهم...

عن سليمان بن حنظلة، قال: أتينا أبيَّ بن كعب رضي الله عنه؛ لنتحدث إليه، فلما قام قمنا، ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عمر، فتبعه فضربه بالدُّرة، قال: فاتقاه بذراعيه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما نصنع؟ قال: أو ماترى فتنة للمتبوع مذلة للتابع؟[4]

وهذا عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله قام من المجلس فتبعه الناس فقال: يا قوم، لا تطؤوا عقبي، ولا تمشوا خلفي، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، قال عمران: خفق النعال خلف الأحمق قلَّ ما يبقي من دينه[5].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (١٧٣)، وأحمد ٣٦/٥ و٣٨، والترمذي (١٢٠٧)، والنسائي ٨٨/٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٥٨/٦.

(٤) سنن الدارمي ١٣٢/١، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده جيد.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٩.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق اللهَ عبدٌ أحب الشهرة[1].

وقال ابن المبارك رحمه الله: قال لي سفيان الثوري: إياك والشهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة[2].

وقال الإمام مالك رحمه الله: إنَّ الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه[3].

وقال يحيى بن معين رحمه الله : ما رأيت مثل أحمد صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير[4].

وهذا الشيخ الإمام الحافظ محمد بن أحمد البغدادي ابن الخاصبة لما علم أنَّ ابن عقيل الحنبلي يجعله من أولياء الله قال: اغترَّ الشيخ[5].

الوصية الثالثة: لا تفتروا عن الهتاف بالله

ملاحظةٌ دقيقة أخصُّ بها المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم أولاً، ثم من يمدُّونهم في كل مجالات الجهاد، بعيدة كانت أم قريبة: (ألاَّ تفتروا عن مناشدة ربكم)، ذلك أنَّ إخلاص المجاهدين ينبغي أن يكون إخلاصًا من منزلة الإحسان، فبوابة طريق منزلة الإحسان في الجهاد هو هتاف القلب مع ربنا، فكلما كثرت مناشدة المجاهدين لله، عاش المجاهد وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى عيانًا حتى يستقرَّ قلبه في منزلة الإحسان.

وكم عجبتُ حين تأملتُ دعاء المجاهدين المخلصين في كتاب الله تعالى، وجدته مناشدة لله من منزلة الإحسان، تعبق ألفاظه بروح العبد الذي كأنه يرى ربه، وكأنه قد باشر لقاءه.

اقرأ من جديد هتاف الربيين بربهم سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

(١) المصدر نفسه ٣٩٣/٧.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٠/٧.
(٣) المصدر نفسه ٩٧/٨.
(٤) المصدر نفسه ٢١٤/١١.
(٥) المصدر نفسه ١١/١٩.

وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (آل عمران).

اقرأ من جديد هتاف الصفوة التي خلصت مع طالوت: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (البقرة).

اقرأ من جديد هتاف سيد المحسنين المخلصين في غزوة بدر، وهو يهتف بالله سبحانه، ويناشده سبحانه، كما يرويه عنه عمر رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله **كفاك مناشدتك ربك** فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (الأنفال)، فأمده الله بالملائكة... الحديث[1].

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني: (وعن سعيد بن منصور، من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم، وإلى المسلمين فاستقلَّهم، فركع ركعتين، وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته: (**اللهم لا تودع مني، اللهم لا**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٠٩) و(٤٦١٠)، وأحمد ١/٣٠ و٣٢، وأبو داود (٢٦٩٠)، والترمذي (٣٠٨١).

تخذلني، اللهم لا تترني، اللهم أنشدك ما وعدتني). وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشدَّ مناشدة من محمد لربه يوم بدر: اللهم إني أنشدك ما وعدتني)[1].

تأمل إدراك الصديِّق حقيقة منزلة الإحسان، وهو أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحواله، فقال له: (**كفاك مناشدتك ربك**)، فأيُّ تعبير عن حقيقة الحال من تعبير الصدِّيق.

وتأمل في كلمات ابن مسعود: (ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشد مناشدة من محمدٍ ربه).

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يناشدون ربهم مناشدة مَن كأنه يراه، حتى لكأنَّ الجيش البدري كلَّه يرى ربه، فلا ينقطع هتافه إذ ذاك أبدًا بشهادة القرآن الكريم في ضمير الجمع، في قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩)، بل منهم من لم يطق لهتاف القلب كتمانًا، ولم يجد لانتظار لقاء ربه في القلب مكانًا، فهتف بالله منطلقًا وكان ما كان.

فقد صح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**). فقال عمير ابن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: (نعم). قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما يحملك على قول بخ بخ؟)، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها). قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة. قال: فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل، رحمه الله.[2]

وقد ذكر ابن جرير أنَّ عميرًا رضي الله عنه قاتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد

(١) فتح الباري ٧/٢٨٨-٢٨٩.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩٥٠)، وأحمد ٣/١٣٦، وأبو داود (٢٦١٨).

غيــر التقــى والبــر والرشــاد[1]

إنَّ هتاف الإحسان لا يبدأ من لحظة لقاء العدو، بل يبدأ من لحظة البيعة مع الله، ذلك العهد الذي صاغ الله سبحانه كلمات عقده، فقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة).

عقد بغير وسيط، وصاحبه ينتظر، وقلبه دائم الهتاف اشتياقًا للقاء الله تعالى، فكيف سيكون هتاف هذا البائع وهو يتقلَّب في هذه الحياة، وقلبه معلَّق في الثمن؟!

كيف سيكون هتافه إذا اقترب من الميدان؟! كيف سيكون هتافه إذا انطلق السباق واشتد؟!

كيف سيكون إذا حمي الوطيس، ورأى من الصحب من قبضوا الثمن بالشهادة؟! كيف؟!

لحظات وألاقيك يا رب.

فتأمل خطاب المسلمين وهم يحفرون الخندق، وتأمل الإحسان في جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم، يُذهل العبد عن كلِّ شيء إذا اقترب اللقاء إلا عن اللقاء.

فاللقاء الذي يُنسي أهل الجنة نعيم الجنة على عظمته حريٌّ به أن يُنسيَ الدنيا على قباحتها، ويُنسيَ المجاهد باقي عمره وأيامه.

يُنسي المشتاق ذاته لله، ينسيه أهله وأحباءه، ينسيه بعضه وكله وأعضاءَ أطرافِه!

فعن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: حدثني أبي، أنَّ عبد الله بن جحش قال يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله تعالى؟ فخلو في ناحية، فدعا سعد فقال: يارب، إذا لقينا العدوَّ غدًا فلقِّني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه. فأمَّن عبد الله ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده، فأقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت لي: يا عبد الله، فيم جُدِع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٧٧.

فتقول: صدقت. قال سعد: كانت دعوته خيرًا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإنَّ أنفه وأذنه لمعلق في خيط[1].

لا ينبغي لعبد عرف لذة هذه المناشدة أن يقطعها يومًا، بل ولا ساعة، حتى لو كان بين الصحب، أو كان في الوحدة، حتى لو كان بعيدًا عن ميدان الجهاد إعدادًا أو إمدادًا.

حتى إذا ما خرج من الخلاء، قال عند أول خطوة خارجة مخاطبًا ربه مباشرة: غفرانك[2].

تذكَّر مزية كلِّ عبادة لمجاهد حال جهاده أو رباطه، ثم انظر كيف تختلف عن نفس العبادة في غير الجهاد.

تذكَّر ذلك وأنت تضع أصبعك كلَّ مرة تقرأ في الأحاديث على كلمة (في سبيل الله).

فهذه الكلمة تعني وقوع العمل الصالح المذكور في أثناء الجهاد، فلا تسأل بعدها عن منزلة ذاك العمل وفضله.

فعن أبي أيوب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(غدوة في سبيل الله، أو روحة، خير مما طلعت عليه الشمس وغربت)**[3].

وعن خريم بن فاتك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(من أنفق نفقة في سبيل الله كُتبت بسبع مئة ضعف)**[4].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا)**[5].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(من صام يومًا في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقًا، كما بين السماء والأرض)**[1].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٤٠٩)، والبيهقي في "السنن الكبرى" ٣٠٧/٦، وأبو نعيم في "الحلية" ١٠٨/١-١٠٩. قال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد. وعزاه الهيثمي في "المجمع" الى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) كما جاء ذلك في السنة الصحيحة، أخرجه أحمد ١٥٥/٦، والدارمي (٦٨٦)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٦٩٣)، وأبو داود (٧)، وابن ماجه (٣٠٠)، والنسائي في "الكبرى" (٩٨٢٤)، وصححه الألباني. وقال شعيب: إسناده حسن.

(٣) أخرجه مسلم (٤٩١١)، وأحمد ٤٢٢/٥، والنسائي ١٥/٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣٤٥/٤، والترمذي (١٦٢٥) وحسّنه، والنسائي (٣١٨٦)، وصححه الألباني، وقال شعيب: إسناده حسن.

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (٢٦٨١)، وأحمد ٨٣/٣، وابن ماجه (١٧١٧)، والنسائي (٢٢٤٨).

هذه الخاصية (**في سبيل الله**) إذا دخل تحتها أيُّ عمل من الأعمال تحوَّل ذلك العمل إلى شيء آخر.

فلنعوِّد القلب الهتاف بالله، لنعوِّده مناشدة الله حتى وإن وقف اللسان أحيانًا، ما دمنا في سبيل الله.

لنعوِّده المناشدة وكأنه يرى ربه ونحن نذكره، ونحن نسكت، ونحن نتوضأ، ونحن نصلي، وعند النوم، ونحن نستيقظ... وهكذا فكأنَّ القلب في حديثٍ دائمٍ مع الله.

فوالله لئن صدقنا مناشدتنا الله في كلِّ وقت فسيهزم الجمع ويولون الدبر.

فما بيننا وبين أن نراه بأعيننا سبحانه، إلا أن يقبض هو هذه الروح ويكشف الحجاب سبحانه.

الوصية الرابعة: الإخلاص للممدِّين

لا يُخشى من الرياء على الذي يجاهد ويغامر بنفسه بين الصفوف فحسب، إنما يُخشى على كلِّ من لهم حكم المجاهدين.

نخاف الرياء على ذلك الخطيب الذي يُخرج العبارة عن الجهاد في عصر الخذلان، لا يريد بذلك إلا أن يقول للناس: إنه شجاع، إنه جريء...!

نخاف الرياء على ذلك الداعي الذي يُسْمِع دعاءه الناس، لا يريد مَنْ تُرفع له الأدعية فيجيبها، ولكن يريد من يؤمِّن على الأدعية حين يستمع لها ويعجب بها!

نخاف الرياء على ذلك الكاتب المجاهد الذي يتخلل بقلمه الكلام كما تتخلل البقر بألسنتها العشب، وهو لا يريد إلا إعجاب الناس بقلمه!

يا أيها المجاهد خطيبًا كنت أو كاتبًا: إن كنتَ تعتقد أنَّ ما تقوله أو تكتبه هبة من الله وفتح من عنده، فكيف ترائي به على أنه من عند نفسك، فتنازع اللهَ فضله، وترائي بشيء لست بصاحبه! وإن كنت تعتقد أنَّ حُسْن ما تقوله أو تكتبه مِن عند نفسك فبئس ما تعتقد، وبئس مَن ورثت عنه هذا المعتقد ذلك هو من قال الله تعالى فيه: ﴿ **قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢٤) وحسَّنه، والطبراني في "الكبير" (٧٨٤٦)، و"الأوسط" (٣٧١٢)، وحسَّنه المنذري والهيثمي والألباني.

قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (القصص).

أيها المجاهد خطيبًا كنت أم كاتبًا أم مستشارًا أم واعظًا: السباق ليس في سعة انتشار ما تقول في لحظته، فما أسرع انبعاث الشرارة، وما أسرع انطفاءها، ولكن ما أقلَّ انتفاع الناس بها!

إنما السباق في مَنْ يوضع له القبول في الأرض، ومَنْ يجعل الله النفع بكلماته، وتوجيهاته، ومشورته، وخطبته.

من يبارك في إحيائه، وإحياء من يحيى بسببه، ودون ذلك الإحسان في الإخلاص.

الوصية الخامسة: لا تتهم نوايا الشهداء

إياك والتعجل في اتهام النوايا، إياك والحكم على إخوانك بأنَّ هذا المجاهد ليس بمخلص، وهذا الفصيل ليس بمخلص، وهذه المجموعة ليست بصادقة...!

وسوف أذكر لك ما ذكره أهل العلم؛ لترى كم من هؤلاء الذين معك في الجهاد من أفراد ومجاميع ممن أسأتَ في قتلاهم الظن، هم شهداء إن شاء الله تعالى.

يقول الإمام ابن النحاس رحمه الله: (فاعلم أنَّ أنواع النية في الجهاد لا تنحصر؛ لتنوع المقاصد فيه، ولكن نذكر منها ما هو الغالب وجودًا، ويقاس عليه ما قد يقع، والتوفيق بيد الله سبحانه.

فمنهم من يقصد بجهاده وجه الله سبحانه؛ لاستحقاقه هذه العبادة، وأمره بها وافتراضها على عباده، من غير التفات عنده إلى جزاء عليها في الآخرة، وهذا عزيز الوجود نادر الإمكان[1]...

ومنهم من يحمله على الجهاد غيرةُ الإسلام والحرص على إعلاء كلمة الله تعالى وإعزازها، وإذلال كلمة الكفر وأهلها، وهاتان النيتان لا شك في صحتهما ولا ريب في الفوز عند الله بهما...

ومنهم من يقصد بجهاده الجنة وثوابها، وكواعبها، وأترابها، والنجاة من النار وعقابها وأليم عذابها، من غير تصور لغير ذلك، هذا هو الأغلب وجودًا...

(١) لا يُعرف هذا عن خير هذه الامة، وهم صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنهم من إذا دهمه القتال يقاتل مقبلاً غير مدبر، ليس له نية البتة غير الدفع عن نفسه، وهذا قريب من أصحاب النية الثالثة وليس مثلهم، وهو شهيد؛ لأنَّ من دفع عن نفسه قُطَّاع الطريق فقتلوه كان من الشهداء، فكيف لا يكون شهيدًا من قُتل بسيوف الأعداء؟! بل هو شهيد في الفضل والحكم...

ومنهم من يخرج إلى الجهاد مُكثِّرًا سواد المجاهدين ليس له نية أن يَقتل ولا يُقتل، وهذا إذا قُتل شهيدٌ؛ لأنَّ من كثَّر سواد قوم فهو منهم...

ومنهم من يجاهد ونيته وجه الله تعالى ونيل الغنيمة جميعًا، ولو انفرد قصد الجهاد عنده لكان كفيلاً بإنهاض القدرة إلى الجهاد بحيث لو دعي إلى غزو طائفة فقراء ليس لهم ما يغنيهم لما أقعده عدم وجود ما يغنم عن الجهاد في سبيل الله، بل كان يجاهد، ولو دعي إلى غزو طائفتين إحداهما فقيرة والأخرى غنية لرغب في جهاد الأغنياء رجاء الغنيمة، وهذه النية مما اختلف وفي أشباهها أئمة السلف، فذهب بعضهم: إلى أنَّ النية فاسدة وأنَّ صاحبها يعاقب عليها؛ لإدخاله قصد الدنيا في عمل الآخرة... **وذهب آخرون: إلى أنَّ هذه النية صحيحة وهذا هو المذهب الصحيح**... وإليه ذهب حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله، فإنه قال في "الإحياء" في كتاب الأمر بالمعروف: وما عندي أنَّ الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزوٍ جهةٍ تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم، بل العدل أن يقال: إن كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية بحيث لو لم تكن غنيمة لما ترك الغزو فإنَّ هذا لا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، فإنَّ هذا الالتفات نقصان لا محالة...

وهذا تصريح منه بأنَّ هذه النية صحيحة، ومن قتل بها فهو شهيد، ولكنه أنزَلُ رتبة من أصحاب النيات الثلاث الأول...

وكذلك صرَّح القرطبي بصحتها، فإنه قال في التفسير: دلَّ خروج النبي ﷺ لتلقي العير -يعني عير أبي سفيان- لما قدم من الشام على جواز النفر للغنيمة؛ لأنها كسب حلال، وهو يردُّ ما كره مالك من ذلك...

ومما يدل كذلك على ما ذكرناه من صحة هذه النية ونيل الشهادة بها وترغيب الله عباده المؤمنين في الغنيمة في غير ما آية من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ (الفتح: ٢٠) ونظائرها، ويبعد أن يرغِّب الله عباده في الغنيمة ويعدهم بها ويمتن عليهم بنيلها ثم يحظر عليهم نيتها وقصدها، ومن أعظم الدلالة أيضًا على ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان يرسل السرايا؛ ليغيروا على نَعَمِ المشركين وأموالهم وذراريهم، وكانوا إذا لحقهم المشركون قاتلوهم دفعًا عما معهم من الغنائم وقصدًا لإعلاء كلمة الله، فلربما انتصر المسلمون وذهبوا بما معهم، وربما كانت الأخرى، وقد استشهد منهم في ذلك خلق كثير، كما هو معروف في كتب المغازي والسير، وكانوا إذا انهزم المشركون لم يتبعهم المسلمون، بل يذهبون بما معهم.

وروى البيهقي في الشعب بإسناد حسن[١]، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ مرَّ بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريد الغزو، فرفع الأعرابي ناحيةً من الخباء، فقال: مَن القوم؟ فقيل: رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون الغزو. فقال: هل من عرض الدنيا يصيبون؟ قيل له: نعم، يصيبون الغنائم ثم تقسم بين المسلمين. فعمد إلى بكر له فاعتقله وسار معهم، فجعل يدنو ببكره[٢] إلى رسول الله ﷺ، وجعل أصحابه يذودون بكره عنه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا لي النجدي، فوالذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة). قال: فلقوا العدوَّ فاستشهد. فأُخبر بذلك النبيُّ ﷺ فأتاه فقعد عند رأسه مستبشرًا، أو قال: مسرورًا يضحك، ثم أعرض عنه، فقلنا: يا رسول الله رأيناك مستبشرًا تضحك ثم أعرضت عنه. فقال: أما ما رأيتم من استبشاري ـ أو قال سروري ـ فلما رأيت من كرامة روحه على الله عزَّ وجلَّ، وأما إعراضي عنه فإنَّ زوجته من الحور العين الآن عند رأسه...

ومنهم من يجاهد ونيته تحصيل عرض الدنيا من غير التفات إلى قصد نوع من العبادة بحيث لو عُرض عليه غزو طائفة من الكفار ليس لهم ما يغنم، أو عَلم أنه يُمنع من الغنيمة لم يغز، فهذا إذا قُتل ليس بشهيد، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء، وليس له أجر البتة...

---

(١) وحسنه المنذري والألباني.

(٢) ببكره: أي الفتي من الإبل. الصحاح للجوهري ٢/٥٩٥.

واختار الغزالي وجماعة: أنه إن كان باعثُ الآخرة أقوى من باعث الدنيا أثيب بالقدر الزائد، **وإن كان باعث الدنيا أقوى أو استوى الباعثان حَبط العمل كأن لم يكن...**

وأما من غزا رياءً وسمعة وافتخارًا ليقال: هو غازٍ أو شجاع أو نحو ذلك، ولم يخطر بباله قصد التقرب إلى الله تعالى البتة بحيث لو خلا من الاطلاع ممن يتوقع منه الثناء والمدح أو قرب المنزلة، لما حمله قصد القربة على الجهاد وبذل نفسه فيه، فإنَّ هذا إذا قُتل ليس بشهيد عند الله بلا خلاف، بل هو خليق في صفقته بالخسران، وجدير في آخرته بالمذلة الهوان، وهو أحد الثلاثة الذين تُسعَّر بهم النار يوم القيامة قبل الخلائق، وإنما استوجب من الله هذا المقت العظيم وحقَّ عليه العذاب الأليم؛ لتقربه بالعبادة إلى غير من شرعها ويستحقها لذاته، وعبد بها غيره، فختم له بالإشراك...

فإن غزا ليقتل فيستريح مما هو فيه من ضعف مؤلم، أو دين لازم، أو فقر ملازم، أو شر يتوقعه، أو مصيبة تنزل به، ولم يخطر بباله التقرب إلى الله ولا إعلاء كلمته، وكان بحيث لو عُرض عليه قتل ظالم له أو قطاع طريق ونحوهم أو موت بطاعون ونحوه لما رغب فيه . وإن كان يحصل له بكل ذلك الشهادة . والراحة مما هو فيه، فهذا مما للنظر فيه مجال، فيحتمل أن يقال: ليس بشهيد عند الله، إذ لم يتمحض قصد التقرب إلى الله تعالى وإعلاء كلمته، ويحتمل أن يقال: إنه شهيد؛ لكونه لم يسمح بنفسه إلا في هذا الوجه دون غيره ورغبته فيه دون غيره، وإن كان شهيدًا- أيضًا- في قتل الظالم أو قطَّاع الطريق أو الطاعون ونحوه، يدلُّ على قصدٍ باطنٍ في التقرب إلى الله تعالى، وعلى إيمان وتصديق بما جاء عن الله ورسوله في ثواب مَن قتله الكفار شهيدًا، وهذا الاحتمال أقرب من الأول، ولكنه لا يلتحق بالمخلصين ولا يلحق شأن الشهداء الأولين)[١].انتهى كلامه رحمه الله.

ألا ما أعظم الإخلاص حين ألحق أصحابَه المتخلفين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنياتهم الخالصة بلا سيوف ولا خيول ولا حضور، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة، فقال: (**إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض**)، وفي رواية: (**إلا شركوكم في الأجر**)[٢].

---

(١) مشارع الأشواق ٢/٦١٢-٦٣٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٨)، ومسلم (٤٩٦٧)، وأحمد ٣/٣٠٠، وابن ماجه (٢٧٦٤).

ما أعظم إخلاص النية في الجهاد حين ربط النصر الذي يطلبه المجاهدون بإخلاص الضعفاء، لا بفضل المجاهدين الأقوياء.

فعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أنه ظنَّ أنَّ له فضلاً على من دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**)[1].

ألا ما أعظم تحقيق الجهاد لحقيقة التجرد لله الواحد الأحد.

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنَّ هذه العقيدة تُعلِّم أصحابها - فيما تُعلِّم - أن ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له، **بلا هدف آخر** لذواتهم في هذا الجهاد، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم، كائنًا هذا القدر ما يكون)[2].

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٨)، وصححه الألباني.

(٢) الظلال ١/٤٩٥-٤٩٦.

العهد الثاني: ألا نعتمد شهادة منافق، ولا خَبَره

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)﴾ (المنافقون).

قال الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، يا محمد، ﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، قال المنافقون ذلك أو لم يقولوا، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. يقول: والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم، أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك)(١).

وقال البقاعي: (ولما كانت الشهادة الإخبار عن علم اليقين؛ لأنها من الشهود وهو كمال الحضور وتمام الاطلاع ومواطأة القلوب للألسنة، صدَّق جلَّ جلاله المشهود به، وكذَّبهم في الإقسام بالشهادة ومواطأة ألسنتهم لقلوبهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، أي: وعلمه هو العلم في الحقيقة، وأكَّده جلَّ جلاله بحسب إنكار المنافقين فقال: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، سواء شهد المنافقون بذلك أم لم يشهدوا، فالشهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه، وتوسط هذا بين شهادتهم وتكذيبهم؛ لئلا يُتوهَّم أنَّ ما تضمنته شهادتهم من الرسالة كذب)(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. (أي: وقاية تقيهم المكاره الدنيوية ويستترون بها منها، فيصونون بها دماءهم وأموالهم، فاستضاؤوا بنور الإجابة فلم ينبسط عليهم شعاع نور السعادة، فانطفأ نورهم بقهر الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الخذلان)(٣).

---

(١) جامع البيان ١٠٦/٢٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٠٥/٧.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٠٧/٧.

وقال ابن كثير: (﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: اتقوا الناسَ بالأيمان الكاذبة والحلفات الآثمة؛ ليصدقوا فيما يقولون، فاغترَّ بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل لهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس)[١].

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: أعرضوا، وهو من الصدود، أو صرفوا المسلمين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي وأخذ الأموال، فهو من الصدِّ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم) [٢].

وقال البغوي: (﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمدﷺ) [٣].

وقال الماوردي في تفسيره "النكت والعيون": (﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فيه وجهان: أحدهما: عن الإسلام بتنفير المسلمين عنه. الثاني: **عن الجهاد بتثبيطهم المسلمين**، وإرجافهم به، وتميزهم عنهم. قال عمر بن الخطاب: ما أخاف عليكم رجلين: مؤمنًا قد استبان إيمانه، وكافرًا قد استبان كفره، ولكن أخاف عليكم منافقًا يتعوَّذ بالإيمان ويعمل بغيره) [٤].

وقال الشوكاني: (﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. أي: منعوا الناس من الإيمان والجهاد)[٥].

أيها المجاهدون في العراق وفي كل مكان: أعيدوا النظر في هذه الآية؛ لتعرفوا السبل التي يمكن أن يتخذها المنافقون لإحكام سِتْرِ مافي بواطنهم من نفاق عن أعينكم.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ﴾، فمن جاء رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! والوحيُ يأتيه بخبر السماء صباح مساء، وينزل عليه يخبر ما في صدورهم، وما أضمروه من سوء، مرارًا وتكرارًا، ومع هذا يأتونه! فإنهم أعظم جرأة على مَنْ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٦٨/٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/١٨.

(٣) معالم التنزيل ٣٤٧/٤.

(٤) النكت والعيون ١٥/٦.

(٥) فتح القدير ٢٣٠/٥.

أما قوله: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، فإنَّ من اتخذ شهادة أن لا اله إلا الله محمد رسول الله، غرضًا لنفاقه، وسترًا لكفره، فلا عجب أن يتخذ ما دونها من الحرمات غرضًا، وكلُّ شيء دونها!

أما قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، فاليمين هي اليمين، لكنك تتخذها أنت تأكيدًا لعزمك الصالح على معروف ما، أوحقيقة ما، وهذا يحلف الأيمان؛ ليتخذها جُنَّة، ليصد بها عن سبيل الله!

ولو رجعتم- أيها المجاهدون- إلى مواقف نُكْبتم بها لوجدتم أنَّ الكثير منها كانت بسبب الثقة بمنافق، وتصديق أَيْمانه، والاغترار بمظهره ومعسول كلامه!

فعن عمربن الخطاب أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان) [1].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (المنافقون).

يقول الإمام الطبري: (وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد، تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها)[2].

وقال البقاعي: (ولما وصف جلَّ جلاله بواطنهم بما زهَّد فيهم؛ لأنَّ الإنسان بعقله كما أنَّ المأكول بشكله، وكانت لهم أشكال تُغرِ ناظرها؛ لأنَّ العرب كانت تقول: جمال المنظر يدل غالبًا على حسن المخبر. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾. أي: أيها الرسول على مالَكَ من الفطنة ونفوذ الفراسة، أو- أيها الرائي- كائنًا من كان بعين البصر، ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾؛ لضخامتها وصباحتها، فإنَّ غايتهم كلَّها بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن أُبيٍّ الذي نزلت السورة بسببه جسيمًا فصيحًا صحيحًا ذلق اللسان، وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ويستندون فيه، ولهم

(١) أخرجه أحمد ٢٢/١ و٤٤، والبزار ٧٥/١ (٣٠٥)، . قال الهيثمي: رجاله موثقون. وصححه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٢) جامع البيان ١٠٧/٢٨.

جهارة المناظر، وفصاحة الألسن، وكان رسول الله ﷺ ومن حضر يُعجبون بهياكلهم. ولما وصف البواطن والظواهر، ولما كان قولهم: المرء بأصغريه قلبه ولسانه. مشروطًا كما هو ظاهر العبارة بمطابقة اللسان للقلب، قال معبرًا بأداة الشاك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه ﷺ إلا اضطرارًا؛ لأنهم لا يحبون مكالمته، ولا باعث لهم عليها لما عندهم من أمراض القلوب، ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾، أي: يوجد منهم قول في وقت من الأوقات،﴿تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾، أي: لأنه يكون بحيث يلذذ السمع ويروق الفكر؛ لما فيه من الإدهان مع الفصاحة، فهو يأخذ بمجامع القلب.

ولما أخبر عن ظاهرهم دلَّ على أنَّ ذلك الظاهر أمر لا حقيقة له، وأنهم لما وطَّنوا أنفسهم على الوقاحة، وخلعوا لباس الحياء بالكذب، بذلوا جميع الجهد في تحسين القول؛ لأنه لا درك عليهم فيه فيما يحسبون بوجه لأنه لا يحسبون للآخرة حسابًا، فقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي: في حسن ظواهرهم، وسوء بواطنهم، وفي الجبن والخور وعدم الانتفاع بهم في شيء من فهم أو ثبات، فأنهم لا حقيقة لهم، ﴿خُشُبٌ﴾، جمع كثرة لخشبة، وهو دليل على كثرتهم، ولما كان الخشب ربما أطلق على المغروس نفى ذلك بقوله منبهًا بالتشديد على الكثرة ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي: قد قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر؛ لئلا يفسدها التراب، فهي بِيضٌ تلوح تعجب ناظرها، ولا ثبات لها، ولا باطن بثمرة ولا سقي فلا مدد سماوي لها أصلاً يزكيها نوع زكاء، فقد فقدت روح الإنبات الذي به كمالها، كما فقد المنافق روح الإيمان الذي به كمال الناطق وبقاؤه، فهم في تلك الحالة أشباح بلا أرواح، أجسام بلا أحلام)(١).

وقال **القرطبي**:(﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾، يعني عبد الله بن أُبيٍّ، قال ابن عباس: كان عبد الله ابن أُبيٍّ جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذلق اللسان، فإذا قال، سمع النبي ﷺ مقالته، ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ **وجهان**، أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك) (٢).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٠٩/٧.

(٢) الجامع لأحكام القران ١٢٤/١٨.

وقال الآلوسي:(﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ... والخطاب قيل: لكل من يصلح له، وأُيِّد بقراءة عكرمة وعطية العوفي يُسمع بالياء التحتية والبناء للمفعول. وقيل: لسيد المخاطبين عليه السلام، وهذا أبلغ على ما في "الكشف"؛ لأنَّ أجسامهم إذا أعجبته ﷺ فأولى أن تعجب غيره، وكذا السماع لقولهم... والسماع مضمَّن معنى الإصغاء، فليست اللام زائدة. وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ... وفي مثلهم قال الشاعر:

لا يخدعنك اللحى والصور تسعة أعشار من ترى بقر

﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ استئناف، أي: هم الكاملون في العداوة، والراسخون فيها، فإنَّ أعدى الأعادي العدو المداجي الذي يكاشرك، وتحت ضلوعه الداء الدوي، ككثير من أبناء الزمان)[١].

وقال الشوكاني:(﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار)[٢].

وقال سيد عند قوله تعالى: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾: (هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح)[٣].

وقال النسفي:(﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾، دعاء عليهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك)[٤].

تُرى أي مظهرٍ يمكن أن يُعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا مظهر الصلاح والتقوى، أو مظهر الجمال وطيب الرائحة، وهكذا يصنع المنافقون طوال التاريخ، فالمبالغة بتزيين الظاهر صفة نفاقية على مرِّ التاريخ، وهو نوع من التغرير في السلعة، كما أنه تغرير بالشخص وإيمانه وعمله، وهم يتخذون لكل من يقصدونه في كل زمن ما يقنعهم من الزينة.

---

(١) روح المعاني ١١٢/٢٨.

(٢) فتح القدير ٢٣٠/٥.

(٣) في ظلال القران ٣٥٧٥/٦.

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢٥٨/٣.

قد قال لي منافق، وصدق وهو كذوب: نعرف مداخلَ قلوبكم وقبولكم، فنفتح أوسع أبواب قلوبكم بأصغر مفاتيحنا، فما هي إلا كلمات قليلة، وتأوهات ثقيلة، وحسرات مريرة، ربما رافقتها قطرات من دموع، أو احمرار المقلتين واحتباس الأنفاس مع مظهر خشوع، وإذا بحصون قلوبكم قد تهاوت مع بواباتها.

أيُّ حذاقة تبصر النفاق، وأيُّ احتياط يكفي الاحتراز منه بعدما حذَّر الله تعالى أعظم الناس بصيرة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

ولو نظرتم- أيها المجاهدون- اليوم كيف تفرَّغ بعضُ من تَرَكَكُم لتزيين جسده، وملبسه، وكرسيه، ومكتبه، وحذائه، وربطته، وعرفتم أنهم لا مقصد لأحدهم بذلك إلا أن يستر خواءه بملبسه! ثم نظرتم إلى هذا الصليبي الذي تقاتلون، وكيف اختار أشكال صحْبه الزنادقة، فهم أحسن القوم أجسادًا، وزيَّنهم بألبسة خاصة... لعرفتم أيَّ أثر لهذا المظهر في العيون الناظرة، أيًّا كانت تلك العيون، ولعرفتم كذلك ضرورة التنبه لتحذير الله من الوقوع في هذه الوسيلة النافذة.

وبناءً على هذا أودُّ التنبيه على بعض الوصايا التي نستخلصها من هذه الآية:

الوصايا

الوصية الأولى: شِراك المظاهر

إياكم أن يقع في قلوبكم بما يظهره الإعلام عن زنادقتهم من خلال مظاهرهم، وكلامهم وتصريحاتهم، وما يدور عنهم من أخبارهم، ومؤتمراتهم، وكلماتهم، وتشدقاتهم، أيُّ أثر، فليس مرادهم من كل هذا البث والوصف إلا **إدخال المنافقين إلى قلوبكم**، وقبولكم، وهم على ذلك مستمرون ومصرون ومتعاهدون مهما طال الزمن؛ لأنه لا بقاء لسادة المنافقين إلا بهؤلاء الزنادقة، وحين نذكر نحن إصرارهم على الاستمرار في النفاق مهما تكشفوا فذلك من قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾، وهل فائدة الأَيمان إلا التوكيد، وإلا فحقيقة الأمر أنهم أحقر الناس في أعين رؤوس الكفر!

ولا يزال الرجل ذا قيمة عندهم مادام ذا مبدأ، فإذا ما وافقهم ونافقهم سقط من أعينهم، وأصبحوا يتلاعبون به كيف شاؤوا، ثم يبدؤون يقيسون ولاءه لهم باختباره في أعز كرامة يمكن أن يدافع عنها.

فالحذر– أيها المجاهدون– من أن لا تقدروا قول ربكم قدره، أو تُحجِّموا كلامه في صورة واحدة جامدة كصورة النفاق القديمة.

لماذا هذا الكم الهائل من المحطات العراقية؟! لماذا هذه المحطات المسلطة على العراق؟!

إنَّ من أماني الصليبيين أن يصبح المنافقون مصدرًا موثقًا لأخبارنا، فبذلك يصبح المنافقون مصدر التحكم في توجهنا وتوجيهنا بدون إرادة، وبدون شعور منكم بأنكم تابعون لهم.

الوصية الثانية: لا تصغ لمنافق

الأمر العملي الذي أريد أن تفيدوه من هذه الآيات أنكم إذا عرفتم نفاق المنافق فلا تصغوا له ابتداءً؛ لأنكم إن أصغيتم له أعجبكم كلامه، وتشربته قلوبكم أو تشربت بعضه، وهل في كلامه إلا التشكيك في الدين والوقيعة بين أصحابه...

وهذا مقتضى عملي لقول الله جلَّ جلاله: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ ﴾ (المنافقون: ٤).

فكيف إذا أتبعتموه نظر الإعجاب مرة إثر مرة!

فبالله عليكم لا تنظروا إلى الأبواق، وانظروا إلى أضرار النفاق.

الوصية الثالثة: خبر المنافق أشد خطورة من خبر الفاسق

فإذا كان الله جلَّ جلاله أوجب التبيُّن من خبر المسلم الفاسق، فما بالك بخبر المنافق؟!

وإذا كان الله تعالى قد أوجب التبيُّن من خبر المسلم الفاسق في كل ظرف من الظروف، فما بالك بظروف المواجهة مع العدو؟!

قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الحجرات).

هذا بالنسبة للخبر، فكيف بالشهادة؟

أيمكن أن تقبل شهادة منافق لدى أيِّ فصيل جهادي؟!

الوصية الرابعة: جهاد الإخبار

كما أنَّ من أقبح الأعمال وأخزاها لصاحبها مهمة التجسس على المجاهدين، فإنَّ أشرف المهام وأعلاها هو أن يكون الرجل مخبرًا لصالح المجاهدين في سبيل الله.

فإنَّ شرف المهمة يثبت بعظم نفعها للأمة، فمن أنفع للأمة من رجل يأتيها بخبر يوفر عليها أرواحًا، وأموالاً، وأمانًا، ويحفظ لها دينها من الردة، وما إلى ذلك؟!

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (القصص).

قال الإمام الطبري عن هذا المُخبِر الكريم: (ذُكر أنَّ قول الإسرائيلي سمعه سامع فأفشاه، وأعلم به أهلَ القتيل، فحينئذ طلب فرعونُ موسى، وأمر بقتله، فلما أمر بقتله، جاء موسى **مخبرٌ وخبَّره** بما قد أمر به فرعونُ في أمره، وأشار عليه بالخروج من مصر بلد فرعون وقومه)[1].

فأكرم به من مخبر! وأكرم به من رجل!

(١) جامع البيان ٢٠/٥٠.

قال ابن كثير: (قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ ، وصفه بالرجولية؛ لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له يا موسى ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾، أي: يتشاورون فيك، ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾، أي: من البلد، ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾)[1].

ويقول البقاعي: (قوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾، أي: ممن يحب موسى عليه الصلاة والسلام، ولما كان الأمر مهمًا، يحتاج إلى مزيد عزم وعظم قوة، قدم فاعل المجيء على متعلقه بخلاف ما في سورة يس، ولما كان في بيان الاقتدار على الأمور الهائلة من الأخذ بالخناق حتى يقول القائل: لا خلاص، ثم الإسعاف بالفرج حتى يقول: لا هلاك، قال واصفًا الرجل: ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾، أي: أبعدها مكانًا، وبيَّن أنه كان ماشيًا بقوله: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾، ولكنه اختصر طريقًا وأسرع في مشيه بحيث كان يعدو فسبقهم بإعظامه للسعي وتجديد العزم في كل وقت من أوقات سعيه، فكأنه قيل: ما فعل؟ فقيل: ﴿ قَالَ ﴾، مناديًا له باسمه تعطفًا وإزالة للبس: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾، وأكَّد إشارة إلى أنَّ الأمر قد دهم فلا يسع الوقت الاستفصال، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ ﴾، أي: أشراف القبط الذين في أيديهم الحل والعقد؛ لأنَّ لهم القدرة على الأمر والنهي، ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾، أي: يتشاورون بسببك، حتى وصل حالهم في تشاورهم إلى أنَّ كلاًّ منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره، فكأنه قيل: لم يفعلون ذلك؟ فقيل: ﴿ لِيَقْتُلُوكَ ﴾؛ لأنهم سمعوا أنك قتلت صاحبهم، ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾، أي: من هذه المدينة، ثم علَّل ذلك بقوله على سبيل التأكيد؛ ليزيل ما يطرق من احتمال عدم القتل لكونه عزيزًا عند الملك: ﴿ إِنِّي لَكَ ﴾، أي: خاصة، ﴿ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾، أي: العريقين في نصحك)[2].

ولله درُّ سيد قطب عليه رحمة الله الذي بيَّن أنَّ هذا المخبِر كان اختيار الله سبحانه تشريفًا له، فقال: (إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة، لتتم مشيئتها! لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليها، أنها فعلة موسى، وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر، فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد، والانتصار لبني إسرائيل، وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر، ولو كانت جريمةَ قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء، **فانتدبت يد القدرة واحدًا من الملأ،**

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٢٢٦.

(٢) نظم الدرر ٥/٤٧٥.

الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر آية٢٨: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾، انتدبه ليسعى إلى موسى ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في جدٍّ واهتمام ومسارعة؛ ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك، ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (١).

من كان يستطيع حماية موسى عليه السلام من فرعون وملئه، وهو في بلد فرعون وبيته؟!

من كان يستطيع حماية موسى عليه السلام من القتل، لو عاد موسى وبات في بيت فرعون تلك الليلة كما كان يبيت، وهو لا يدري بالمؤامرة؟!

كم لهذا المخبِر الغيور من فضل حين بلَّغ موسى عليه السلام بالخطة، وعرَّفه بطريق الخلاص، وخلَّصه من القتل فعليًا؟!

كم حاز هذا المخبِر من شرف حين رفع الله ذكره بذكره في كتابه العظيم، فأصبح يقرأ على العالمين إلى يوم القيامة؟!

ولا يقتصر عمل المخبر على الرجال، فلربما كان للنساء دور أعظم، وخصوصًا حين يعجز الرجال، فتأتي النصرة من صفوف النساء.

وهل نجحت الهجرة بعد فضل الله إلا بالعمل الاستخباري لذات النطاقين؟!

ويبقى المخبرون المجاهدون في سباق، وصاحب الفضل الأول في المسلمين هو السابق في مجيئهم بالخبر النافع.

فعن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرى، إلا: يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة، قال: فقعد وكان متكئًا، فقال: إنَّ الساعة لا تقوم، حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ونحاها نحو الشام فقال: عدوٌ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٨٥.

الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة، إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها، حتى إنَّ الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب كانوا مئة، فلا يجدونه بقى منهم إلا الرجل الواحد، فبأيِّ غنيمة يفرح؟! أو أيِّ ميراث يقاسم؟! فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس، هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إنَّ الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**)[1].

إنَّ مهمة الإخبار لهي المهمة العظمى في كثير من الأحيان...

وقد صح من حديث الأعمش، عن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة فقال له رجل: لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتلتُ معه وأبليتُ، فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة)، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: (يا حذيفة قم فأتنا بخبر القوم)، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: (ائتني بخبر القوم ولا تُذعرهم عليَّ)، قال: فمضيتُ كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعتُ سهمًا في كبد قوسي، فأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: (لا تُذعرهم عليَّ)، ولو رميته لأصبته، فرجعتُ كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، فأصابني البرد حين رجعت وقُرِرت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: (قم يا نومان).[2]

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٨٤)، وأحمد ٣٨٤/١.

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٦٣).

وكلما اشتدت الفتن على المسلمين ازدادت أهمية المخبرين والمخبرات، وهل من فتنة أعظم من فتنة يأجوج ومأجوج؟!

ومع هذا فبعدما تفور تلك الفتنة وتبلغ منتهاها تكون البشارة على يد مخبر باع نفسه لله تعالى...

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (... ثم يهزُّ أحدُهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع مخضبة دمًا للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدوُّ؟ قال: فيتجرد منهم رجلٌ محتسبًا لنفسه قد أطَّنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإنَّ الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط)[1].

فيا الله كم للمخبِر المجاهد منزلة عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم! كم له من نفع للإسلام والمسلمين!

وكم يحتاج هذا المخبِر إلى استفراغ الجهد في التوكل على الله تعالى، وطلب ستره حتى يقضي مهمته؟

وكم يحتاج أن يدعو له القائد وسائر الجيش؟

وكم يحتاج إلى أن تدعو على أخبارهم ومخبريهم : اللهم خذ العيون والأخبار عنهم...

إنَّ الواجب على كل مسلم أن يجعل نفسه عينًاً للإسلام، ويجعل قلبه جناحًا يخفق على الإسلام، ويجعل أحاسيسه لاستشعار الخطر على الإسلام، وأذنه سماعة لهذا الدين العظيم...

فلكم شرَّف الله تلك الآذان التي استمعت ونقلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخبر حين أنزل قوله سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ (المنافقون).

---

(١) أخرجه أحمد ٧٧/٣، وابن ماجه (٤٠٧٩)، وابن حبان (٦٨٣٠)، قال الألباني :حسن صحيح. وقال شعيب : إسناده جيد.

وإذا أوجب الله على المسلم إظهار العيب عند البيع الذي فيه حفظ دراهم، فإنَّ إظهار عيب المشركين، وحماية عيب المسلمين، وستر نقطة ضعفهم أولى وأحرى...

ألم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**الدين النصيحة**)، **قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال:** (**لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**)[١].

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في البيع صغيرًا كان أم كبيرًا، والعيب صغيرًا كان أم كبيرًا: (**المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعًا فيه عيب إلا بيَّنه له**)[٢].

واليوم وبعد تغلغل الكثير من العراقيين في كثير من المجالات، وفي كثير من البلدان، وحسبوا أنَّ ذلك نعمة، وعليهم شكرها، عليهم أن يعلموا أنَّ ذلك **ذنب عظيم**، إذ هو يقابل الجهاد في سبيل الله، وكل واحد يعرف ماذا يُسمى ما يقابل الجهاد في سبيل الله ويضاده! اللهم إلا أن يسخِّر ذلك في خدمة الجهاد، عندها يتحول إلى نعمة حقيقية.

ومن أعظم ما يقدَّم خدمة للجهاد هو مواصلة المجاهدين بالأخبار صغيرة كانت أم كبيرة، وكلما عمَّ نفعُ الخبر عظم أجره...

والتوبة من هذا **الذنب العظيم** بتسخير العمل للمجاهدين، وعلى الأخص في مجال إخبارهم وإدخالهم وتمكينهم... عندها يصبح عمل الفرد عبادة من أعظم العبادات، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (**إنما الأعمال بالنيات**)[٣].

وقد رخَّص النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لمن احتاج من الصحابة أن يتكلم فيه أو في دينه لمصالح عظمى كاغتيال رأس من رؤوس الكفر ونحو ذلك، وانظر في هذه المسألة كتابًا نافعًا للشيخ أبي بصير سمَّاه: (حالات يجوز فيها إظهار الكفر).

يتبع إن شاء الله تعالى...

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٧)، وأحمد ١٠٢/٤، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي ١٥٦/٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٥٨/٤، وابن ماجه (٢٢٤٦)، وقال الألباني: صحيح. وقال شعيب: حسن.

(٣) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (٤٩٦٢)، وأحمد ٢٥/١، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والنسائي ٥٨/١ .